من بداية المجلد العاشر حتى صفحة 100

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ذكر عود أسد الدين شِيركوه

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر، وما كان منه ، وقفوله إلى الشام ، فلما وصل إلى الشام ، أقام على حاله في خدمة نور الذين إلى الآن ، وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ، ويقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير، فلما كان هذه السنة، تجهز، وسار في ربيع الآخر، فِي جيش قوي ، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفى فارس ، وكان كَارِهَاً لذلك ، ولكن لمّا رأى جد أسد الدين في المسير، لم يمكنه إلا أَنْ يسير معه جمعاً، خوفاً من حادث يتجدد عليهم ، فيضف الإِسلام ، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البرِّ، وترك بلاد الفرنج على يمينه ، فوصل الديار المصرية ، فقصد إطفيح ، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة ، مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية ، وحكم عليها، وأقام نيفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور، لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم ، قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم ،

فأتوه على الصعب ، والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً أنْ يملكها أسد الدين ، فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ، ومع نور الدين ، فالرجاء يقودهم ، والخوف يسوقهم ، فلمّا وصلوا إلى مصر، عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى، الصعيد ، فبلغ مكاناً يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه ، فأدركوه بها ، في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، وكان أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس ، فعادوا إليه ، وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُدَدَهم ، وجدهم فى طلبه ، فعزم على قتالهم ، إِلا أنه خاف من أصحابه أن تضُف نفوسهم ، عن القتال في هذا المقام الخطر، الذي عطبهم فيه ، أقرب من سلامتهم ، لقلة عددهم ، وبعدهم عن أوطانهم

وبلادهم ، وخطر الطريق ، فاستشارهم ، فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرفي ، والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا، وهو الذي يغلب على الظن ، فإلى أين نلتجىء، وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي ، وعامي وفلاح ، عدو لنا، فقام أمير من مماليك نور الدين ، يقال له شرف الدين برغش ، صاحب شقيف ، وكان شجاعاً ، وقال : من يخاف القتال والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون في بيته مع امرأته ، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة، ولا بلاء نعذر فيه ، ليأخذن مالنا من أقطاع وجامكية ، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه ، منذ خدمناه إلى يومنا هذا ، ويقولون تأخذون أموال المسلمين ، وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار، والحق بيده . فقال أسد الدين : هذا الرأي ، وبه أعمل ، وقال ابن أخيه ، صلاح الدين ، مثله ، وكثر الموافقون لهم ، واجتمعت الكلمة على القتال ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج ، وهو على تعبية ، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أنْ يتركها بمكان آخر، فينهبها أهل البلاد، وجعل صلاح الدين في القلب ، وقال له ، ولمن معه ، إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ، طنّاً منهم أني فيه ، فإذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدامهم بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم ، فارجعوا في أعقابهم ، واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ، ويعرف صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقاتل الطائفتان ، فعل الفرنج ما ذكره ، وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالًا يسيراً ، وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، ومعهم الفرنج ، فحمل حينئذ أسد الدين ، فيمن معه ، على من تخلف مِنَ الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس ، والراجل ، فهزمهم ، ووضع السيف ، فيهم ، فاثخن ، وأكثر القتل ، والأسر، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين ، رأوا عسكرهم مهزوماً ، والأرض منهم قفراً ، فانهزموا أيضاً ، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين ، سار إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية، فتسلمها بمساعدة من أهلها، سلموها إليه ، فاستناب بها صلاح الدين ، ابن أخيه ، وعاد إلى

الصعيد، فملكه وجبى أمواله ، وأقام به حتى صام رمضان ، وأما المصريين والفرنج ، فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة ، وأصلحوا حال عساكرهم ، وجمعوا ، وساروا إلى الإسكندرية، فحضروا صلاح الدين بها، واشتد الحصار، وقل الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك ، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان ، فوصل رسل الفرنج والمصريين ، يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذه من البلاد ، فاجاب إلى ذلك ، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ، ولا يتملكوا منها قرية واحدة ، فأجابوا إلى ذلك ، واصطلحوا ، وعادوا إلى الشام ، وتسلم المصريون الإِسكندرية في نصف شوال ، ووصل شيركوه إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وأما الفرنج ، فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أنْ يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع نور الدين من إنقاذ عسكر إليهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة، مائة ألف دينار، هذا كله استقر مع شاور، فإن العاضد لم يكن له معه حكم ، لأنه قد حجر عليه ، وحجبه عن الأمور، كلها وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشامي ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم ، وكان الكامل شجاع بن شاور، قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ، ينهى محبته ، وولاءه ويسأله الدخول في طاعته ، وضمن على نفسه أنّه يفعل هذا، وبذل ما لا يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك ، وحمل إليه مالاً جزيلاً، فبقي الأمر على ذلك ، إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هناك ، إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك نور الدين صافيثا وعُرَيمة

في هذه السنة ، جمع نور الدين العساكر، فسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره ، فاجتمعوا على حمص ، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج ، فاجتازوا على حصن الأكراد ، فأغاروا ، ونهبوا ، وقصدوا عرقة ، فنازلوها ، وحصروها ، وحصروا حلبة ، وأخذوها ، وخربوها ، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً ، تغير، وتخرب البلاد، وفتحوا العريمة ، وصافيثا ، وعادوا إلى حمص ، فصاموا بها رمضان ، ثم ساروا إلى بانياس ، وقصدوا حصن هونين ، هو للفرنج أيضاً ، من أمنع حصونهم ومعاقلهم ،

فانهزم الفرنج عنه ، وأحرقوه ، فوصل نور الدين من الغد، فهدم سوره جميعه ، وأراد الدخول إلى بيروت ، فتجدد في العسكر خلف أوجب التفرق ، فعاد

قطب الدين إلى الموصل ، وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات ، وكانت له ، فأخذها في طريقه ، وعاد إلى الموصل .

ذكر قصد ابن شنكا البصرة

في هذه السنة، عاود ابن شنكا، فقصد البصرة، ونهب بلدها، وخربه من الجهة الشرقية ، وسار إلى مطارا ، فخرج إليه كمشتكين ، صاحب البصرة ، وواقعه ، فاجتمع بشرف الدين أبي جعفر بن البلدي ، الناظر فيها، ومعهما مقطعهما ارغش ، واتصلت الأخبار، بانّ ابن شنكا واصل إلى واسط ، فخاف الناس منه خوفاً شديداً ، فلم يصل إليها .

ذكر قصد شملة العراق

في هذه السنة ، وصل شملة ، صاحب خوزستان ، إلى قلعة الماهكي ، من أعمال بغداد، وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئاً من البلاد، ويشتط في الطلب ، فسير الخليفة أكثر عساكره إليه ، ليمنعوه ، وأرسل إليه يوسف الدمشقي يلومه ، ويحذره عاقبة فعله ، فاعتذر بان ايلدكز والسلطان أرسلان نشاه ، أقطعا الملك الذي عنده ، وهو ولد ملكشاه البصرة، وواسط وعرض التوقيع بذلك ، وقال : أنا أقنع بثلث ذلك ، فعاد الدمشقي بذلك ، فأمر الخليفة بلعنه ، وأنه من الخوارج ، وجُمعت العساكر، وسُيرت إلى أرغش المسترشدي ، وكان بالنعمانية ، هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلدي ، ناظر واسط ، مقابل شملة ثم إنّ شملة أرسل قلج ، ابن أخيه ، في طائفة من العساكر لقتال طائفة من الأكراد، فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده ، وسار إلى قلج ، فحاربه ، فاسر قلج ، وبعض أصحابه ، وسيرهم إلى بغداد، وبلغ شملة، وطلب الصلح ، فلم تقع الإجابة إليه ، ثم إنّ أرغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات ، وبقي شملة مقيماً مقابل عسكر الخليفة، فلما علم أنه لا قدرة له عليهم وحل ، عاد إلى بلاده ، وكانت مدة سفره أربعة أشهر.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، عصى غازي بن حسان المنبجي ، على نور الدين محمود بن زنكي

صاحب الشام ، وكان نور الدين قد أقطعه مدينة سنبج ، فامتنع عليه فيها، فسير إليه عسكراً ، فحصروه ، وأخذوه منه ، وأقطعها نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عادلاً، خيراً محسناً إلى الرعية، جميل السيرة، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيها ، توفي فخر الدين أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، صاحب حصن كيفا ، وأكثر ديار بكر، ولما اشتد مرضه ، أرسل إلى نور الدين محمود ، صاحب الشام ، يقول له : بيننا صحبة في جهاد الكفار، أريد أن ترعى بها ولدي ، ثم توفي ، وملك بعده ولده محمد ، فقام نور الدين الشامي بنصرته ، والذب عنه ، بحيث إنّ أخاه قطب الدين مودودا ، صاحب الموصل ، أراد قصد بلاده ، فأرسل إليه أخوه نور الدين يمنعه ، ويقول له : إن قصدته ، أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً ، فامتنع من قصده .

وفيها، توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ، ببغداد، وكان على ديوان الزمام ، فقبض عليه ، فمات محبوساً .

وفيها توفي قماج المسترشدي ، ولد الأمير يزدن ، وهو من أكابر الأمراء ببغداد .

ثم دخلت سنة ثلاث

وستين وخمسمائة

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين في البلاد

في هذه السنة، فارق زين الدين علي بن بكتكين ، النائب عن قطب الدين مودود ابن زنكي ، صاحب الموصل ، خدمة صاحبه بالموصل ، وسار إلى إربل ،، وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده ، منها إربل ، وفيه بيته وأولاده وخزائنه ، ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها ، وجميع بلد الهكارية وقلاعه ، منه العمادية وغيرها ، وبلد الحميدية ، وتكريت ، وسنجار، وحران ، وقلعة الموصل ، هو بها ، وكان قد أصابه طرش وعمى أيضاً، فلما عزم على مفارقة الموصل ، إلى بيته بإربل ، سلم جميع ما كان بيده من البلاد، إلى قطب الدين مودود، وبقي معه إربل حسب ، وكان شجاعاً ، عاقلًا، حسن السيرة، سليم القلب ، ميمون النقيبة، لم ينهزم من حرب قط ، وكان كريماً، كثير العطاء للجند وغيرهم ، مدحه الحيص بيص بقصيدة ، فلما أراد أن ينشد قال : أنا لا أعرف ما يقول ، ولكني أعلم أنه يريد شيئا، فأمر له بخمسمائة دينار، وفرس ، وخلعةّ ، مجموع ذلك ألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة، ولما فارق زين الدين قلعة الموصل ، سلمها قطب الدين إِلى فخر الدين عبد المسيح ، وحكمه في البلاد، فعمر القلعة، وٍ كانت خراباً ، لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرة سديدة ، وسياسة عظيمة ، وهو خصي أبيض ، من مماليك زنكي أتابك عماد الدين .

ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

في هذه السنة ، أرسل آقسنقر الأحمديلي ، صاحب مراغة ، إلى بغداد ، يسأل أن يخطب للملك الذي هو عنده ، وهو ولد السلطان محمد شاه ، ويبذل أنّه لا يطأ أرض العراق ، ولا يطلب شيئاً غير ذلك ، وبذل ما لا يحمله إذا أجيب إلى ما التمسه ، فأُجيب

بتطييب قلبه ، وبلغ الخبر ايلدكز، صاحب البلاد، فساءه ذلك ، وجهز عسكراً كثيفاً، وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان ، وسيرهم إلى اقسنقر، فوقعت بينهم حرب ، أجلت عن هزيمة آقسنقر، وتحصنه بمراغة ، ونازله البهلوان ، وحصره ، وضيّق عليه ، ثم ترددت الرسل بينهم ، فاصطلحوا ، وعاد البهلوان إلى أبيه بهمذان .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ، استوزر الخليفة المستنجد باللّه ، شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد، المعروف بابن البلدي ، وكان ناطراً بواسط ، أبان في ولايتها عن كفاية عظيمة ، فأحضره الخليفة ، واستوزره ، وكان عضد الدين أبو الفرج ، ابن رئيس الرؤساء ، قد تحكم تحكماً عظيماً، فتقدم الخليفة إلى ابن البلدي بكف يده وأيدي أهله وأصحابه ، ففعل ذلك ، ووكل بتاج الدين ، أخي استاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك ، لأنه كان يتولاه من أيام المقتفي ، وكذلك فعل بغيره ، فحصّل بذلك أموالاً جمّة، وخافه أستاذ الدار على نفسه ، فحمل مالًا كثيراً .

وفي هذه السنة، توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعيد بن أبي المظفر السمعاني المروزي ، الفقيه الشافعي ، وكان مكثراً من سماع الحديث ، سافر في طلبه ، وسمع منه ما لم يسمعه غيره ، ورحل إلى ما وراء النهر، وخراسان ، دفعات ، ودخل إلى بلد ا لجبل ، وأصفهان والعراق ، والموصل ، والجزيرة ، والشام ، وغير ذلك من البلاد ، وله التصانيف المشهورة ، منها ذيل تاريخ بغداد، وتاريخ مدينة مرو، وكتاب النسب ، وغير ذلك ، أحسن فيها ما شاء، وقد جمع مشيخته ، فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي ، فقطعه ، فمن جملة قوله فيه : إنه كان يأخذ الشيخ ببغداد، وبعبر به إلى فوق نهر عيسى ، فيقول : حدثني فلان بما وراء النهر، وهذا بارد جدا، فإن الرجل سافر إلى ما وراء النهر حقاً، وسمع في عامة بلاده من عامة شيوخه ، فأي حاجة به إلى هذا التدليس البارد، وإنما ذنبه عند ابن الجوزي أنه شافعي ، وله أسوة بغيره ، فان ابن الجوزي لم يبق على أحد، إلا مكسري الحنابلة .

وفيها ، توفي قاضي القضاء ، أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفي ، في جمادى الآخرة .

وفيها ، توفيِ يوسف الدمشقي ، مدرس النظامية بخوزستان ، وكان قد سار رسولًا إلى شملة .

وفيها توفي الشيخ أبو النجيب الشهرزوري ، الصوفي ، الفقيه ، وكان من الصالحين المشهورين ، ودُفِن ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ذكر ملك نور الدين قلعة جَعْبَر

في هذه السنة، ملك نور الدين محمود بن زنكي ، قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقلي ، وكانت بيده ،وبيد آبائه من قبله ، من أيام السلطان ملكشاه –وقد تقدم ذكر ذلك –وهي من أمنع القلاع ، وأحصنها ، مطلة على الفرات من الجانب الشرقي ، وأما سبب ملكها، فإن صاحبها نزل منها يتصيد، فأخذه بنو كلاب ، وحملوه إلى نور الدين ، في رجب سنة ثلاث وستين ، فاعتقله ، وأحسن اليه ورغبه في الأقطاع والمال ليسلم إليه القلعة ، فلمِ يفعل ، فعدل إلى الشدة، والعنف ، وتهدده فلم يفعل ، فسير إليها نور الدين ، عسكراَ ، مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني ، فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء ، فأمدهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر، المعروف بابن الداية ، وهو رضيع نور الدين ، وأكبر أمرائه ، فحصرها أيضا، فلم ير له فيها مطمعاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض ، ولا يخاطر في حفظها بنفسه ، فقبل قوله ، وسلمها، فاخذ عوضاً عنها سروج وأعمالها، والملاحة التي بين بلد حلب وباب بزاعة ، وعشرين ألف دينار معجلة، وهذا إقطاع عظيم جدا، إلا أنه لا حصن فيه ، وهذا آخر أمر بني مالك بالقلعة، ولكل أمر أمد، ولكل ولاية نهاية ، بلغني أنه قيل لصاحبها : أيما أحب إليك ، وأحسن مقاماً سروج والشام ، أم القلعة؟ فقال : هذه أكثرُ مالاً، وأما العز، ففارقناه بالقلعة .

ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور

في هذه السنة ، في ربيع الأول ، سار أس! الدين شيركوه بن شاذي ، إلى ديار مصر،

فملكها، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك ، ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية، وأنهم جعلوا لهم في القاهرة، شحنة، وتسلموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم ، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً ، وركبوهم بالأذى العظيم ، فلما رأوا ذلك ، وأن البلاد ليس فيها من يردهم ، أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام ، وهو مري ، ولم يكن للفرنج مذ طهر بالشام مثله ، شجاعة، ومكراً، ودهاءً، يستدعونه ليملكها، وأعلموه خلوها من موانع ، وهوّنوا عليه ، فلم يجبهم ، فاجتمع إليه فرسان الفرنج ، وذو الرأي منهم ، وأشاروا عليه بقصدها ، وتملكها ، فقال لهم : الرأي عندي ، أننا لا نقصدها، ولا طمعة لنا فيها، وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين ، لانْ نحن قصدناها لنملكها، فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها، لا يسلمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج ، وإجلاؤهم مِنْ أرض الشام ، فلم يقبلوا قوله ، وقالوا له : إنها لا مانع فيها، ولا حامي ، وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ، ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة ، فسار معهم على كره ، وشرعوا يتجهزون ، ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين شرع أيضاً يجمع عساكره ، وأمرهم بالقدوم عليه ، وجد الفرنج في السير إلى مصر، فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس ، وملكوها قهراً ، مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا فيها وأسروا، وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ، ووعدوهم النصرة ، عداوةً منهم لشاور بن الخياط وابن فرجلة، فقوي جنان الفرنج ، وساروا من بلبيس إلى مصر، فنزلوا على القاهرة عاشر صفر، وحصروها، فخاف الناس منهم أنْ يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه ، وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس ، ملكوا مصر والقاهرة، ولكن الله تعالى حسّن لهم ذلك ، أي ما فعلوا { ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً}(ا) وأمر شاور بإحراق مدينة مصر، تاسع صفر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة ، وأن ينهب البلد ، فانتقلوا

، وبقوْا على الطرق ، ونُهِبت المدينة ، وافتقر أهلها ، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم ، خوفاً أن

(1) سورة الأنفال 44 .

يملكها الفرنج ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال : هذه شعور نسائي ، من قصري ، يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، فشرع في تسيير الجيوش .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها ، وشاور هو المتولي للأمر والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر، وضعُف عن ردهم ، فاخلد إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودة ومحبة له قديماً ، وأنّ هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح ، وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين ، فأجابه إِلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل! البعض ، ويمهل البعض ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، ورأى الفرنج أنّ البلاد قد امتنعت عليه ، وربما سُلِّمت إلى نور الدين ، فأجابوا كارهين ، وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ، ونعاود البلاد بقوة، لا نبالي معها بنور الدين { ومكروا ومكرَ اللهُ خيرُ الماكرين }(1) فجعل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه ، ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أنّ أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم ، وما فيها وما سلم نُهِب ، وهم لا يقدرون على الأقوات ، فضلاً عن الأقساط .

وأما أهل القاهرة، فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم ، فلهذا تعذرت عليهم الأموال ، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه ، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأَنْ يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر ، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم ، وكان نور الدين لمّا وصله كتب العاضد بحلب ، أرسل إلى أسد الدين يستدعيه ، إليه ، فخرج القاصد في طلبه ، فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص ، وكانت أقطاعه . وكان سبب وصوله أن كتب المصريين وصلته أيضاً في المعنى ، فسار أيضاً إلى نور الدين ، واجتمع به ، وعجب نور الدين من حضوره في الحال ، وسره ذلك ، وتفا 4 ل به ، وأمر بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتي

ألف دينار، سوى الثياب ، والدواب والأسلحة ، وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، واختار

(1) سورة آل عمران 54.

من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع ستة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق ، فوصلها سلخ صفر، ورحل إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين ، كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً ، معونة غير محسوبة من جامكيته ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء ، منهم مملوكه عز الدين جرديك ، وغرس الدين قلح ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب ، أخي شيركوه ، على كره منه {وعسى أنْ تكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكُم وعسى أنْ تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكُم }(9) أحب نور الدين ، مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه ، وسير ذلك عند موت شيركوه إن شاء الله تعالى.

وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً، منتصف ربيع الأول ، فلما قارب مصر، رحل الفرنج إِلى بلادهم ، بخفي حنين خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودهم ، فسره ذلك ، وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبث رسله في آلافاق مبشرين بذلك ، فإنه كان فتحا جديداً لمصر، وحفظاً لبلاد الشام وغيرها ، فأما أسد الدين ، فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة، ودخل إليها، واجتمع بالعاضد لدين الله ، وخلع عليه ، وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وفرح به أهل مصر، وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة ، والإِقامات الوافرة ، ولم يمكن شاور المنع عن ذلك ، لأنّه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه ، وهوى العاضد معهم ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه ، وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال ، وإقطاع الجند ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ، ويسير معه ، ويعده ، ويمنيه {وما يعدهم الشيطان إلا غروراً}(2) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ، ويقبض عليهم ، يستخدم من معهم من الجند، فيمنع بهم البلاد من الفرنج ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال . له : والله لئن عزمت على هذا الأمر، لأعرفن شيركوه ، فقال له أبوه : والله لئن لم نفعل هذا، لنقتلنّ جميعاً، فقال : صدقت ، ولأن نُقْتَل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خيرٌ من أنْ نقتل ، وقد

(1) سورة البقرة 216 .

(2) سورة النساء 120 .

ملكها الفرنج ، فإنّه ليس بينك وبين عود الفرنج ، إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشي العاضد إلى نور الدين ، لم يرسل معه فارساً واحداً، ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه ، ولما رأى العسكر النوري مطل شاور، خافوا شره ، فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعز الدين جرديك ، وغيرهم ، على قتل شاور، فنهاهم أسد الدين ، فسكنوا، وهم عذ ذلك العزم مِنْ قتله ، فاتفق أنٌ شاور قصد عسكر أسد الدين ، على عادته ، فلم يجده في الخيام ، كان قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه ، فلقيه صلاح الدين يوسف ، وجرديك في جمع من العسكر، وخدموه ، وأعلموه ، بأنّ شيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي ، فقال : نمضي إليه ، فساروا جميعاً فسايره صلات الدين وجرديك ، وألقوه إلى الأرض ، عن فرسه ، فهرب أصحابه عنه ، فأُخذ أسيراً ، فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين ، فتوكلوا بحفظه ، وسيروا ، أعلموا أسد الدين ، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر، فأرسل إِلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، وتابع الرسل بذلك ، فقُتِل وأرسل رأسه إلى العاضد ، في السابع عشر من ربيع الآخرة ، ودخل أسد الدين القاهرة ، فرأى من اجتماع الخلق ، ما خافهم على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين ، يعني العاضد – يأمركم بنهب دار شاور، فتفرق الناس عنه إليها، فنهبوها، وقصد هو قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، فلم ير فيها ما يقعد عليه ، واستقر في الأمر، وغلب عليه ، ولم يبق له مانع ، ولا منازع ، واستعمل على الأعمال من يثق إليه من أصحابه ، وأقطع البلاد لعساكره ، وأما الكامل بن شاور، فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو لاخوته معتصمين به ، فكان آخر العهد بهم ، فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عُدِم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه ، وكان يقول وددت أنه بقي ، لأحسن إِليه جزاء الصنيعة.

لما ثبت قدم أسد الدين ، وظن أنه لم يبق ك منازع ، أتاه أجله {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة}(1) فتوفي يوم السبت ، الثاني من جمادى الآخرة ، سنة أربع وستين

(1) الأنعام 44 .

وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام ، وأما ابتداء أمره ، وسبب اتصاله بنور الدين ، فإنه كان هو، وأخوه نجم الدين أيوب ، ابنا شاذي ، من بلودين ، من أذربيجان ، وأصلهما من الأكراد ، الزوادية ، وهذا القبيل هم أشرف الأكراد ، فقدما العراق ، وخدما مجاهد الدين بهروز، شحنة بغداد، فرأى من نجم الدين عقلاً وافراً، وحسن سيرة، وكان أكبر من شيركوه ، فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت ، وهي له ، فسار إليها ، ومعه أخوه شيركوه ، فلما انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق ، من قراجا الساقي –على ما ذكرناه – سنة ست وعشرين وخمسمائة – وصل منهزماً إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين ، وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك ، وتبعه أصحابه ، فاحسن أيوب صحبتهم ، وسيرهم ، ثم إن شيركوه قتل إنساناً بتكريت ، لملاحاة جرت بينهما ، فأخرجهما بهروز من القلعة ، فسار إلى الشهيد زنكي ، فاحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما أقطاعاً حسناً، فلما ملك قلعة بعلبك ، جعل أيوب مستحفظاً بها، فلما قُتِل الشهيد، حصر عسكر دمشق بعلبك ، وهو بها ، فضاق عليه الأمر، وكان سيف الدين غازي بن زنكي ، مشغولًا عنه بإصلاح البلاد، فاضطر إلى تسليمها إليهم ، فسلمها على أقطاع ذكره ، فأجيب إلى ذلك ، وصار من أكبر الأمراء بدمشق ! واتصل أخوه ، أسد الدين شيركوه ، بنور الدين محمود، بعد قتل زنكي ، وكان يخدمه في أيام والده ، فقربه ، وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها، فزاده ، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك دمشق ، أمره فراسل أخاه أيوب ، وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها ، فاجاب إلى ذلك ، على ما يراد منه على أقطاع ذكره له ولأخيه ، وقرى يتملكانها ، فأعطاهما ما طلبا ، وفتح دمشق – على ما ذكرناه –ووفى لهما وصارا أعظم أمراء دولته ، فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر، لم ير لهذا الأمر العظيم ، والمقام الخطر غيره ، فأرسله ، ففعل ما ذكرناه أولاً وآخراً ، والله أعلم .

ذكر ملك صلاح الدين مصر

لما توفي أسد الدين شيركوه ، كان معه صلاح الدين يوسى، ابن أخيه أيوب ابن شاذي ، قد سار معه على كره منه للسير. حكى لي عنه بعض

أصدقائنا، ممن كان قريباً إليه ، خصيصاً به ، قال : لما وردت كتب العاضد على نور الدين ، يستغيث به من الفرنج ، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني ، وأعلمني الحال ، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ، ليحضر، وتحثه أنت على الإسراع ، فما يحتمل

الأمر التأخير، ففعلت ، وخرجنا من حلب ، فما كنا على ميل من حلب ، حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى ، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك ، التفت عمي إليّ ، فقال لي : تجهز يا يوسف ، فقلت والله لو أعطيت ملك مصر، ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ، ما لا أنساه أبداً ، فقال لنور الدين ، لا بد من مسيره معي ، فتأمر به ، فأمرني نور الدين ، وأنا استقيل ، وانقض المجلس ، وتجهز أسد الدين ، ولم يبق غير المسير، قال لي نور الدين :لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت إليه الضائقة، وعدم البرك ، فأعطاني ما تجهزت به ، فكأنما أساق إلى الموت ، فسرت معه ، وملكها، ثم توفي فملكني الله تعالى،ما لا كنت أطمع في بعضه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الأمراء النورية، الذين كانوا بمصر، طلبوا التقدم على العساكر، وولاية الوزارة العاضدية بعده ، منهم ، عين الدولة الباروقي ، وقطب الدين ينال ، وسيف الدين المشطوب الهكاري ، وشهاب الدين محمد الحارمي ، وهو خال صلاح الدين ،. وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين ، أحضره عنده ، وخلع عليه ، وولاه الوزارة بعد عمه ، وكان الذي حمله على ذلك ، أنّ أصحابه قالوا له : ليس في الجماعة، أضعف ولا أصغر سناً من يوسف ، والرأي أن يولّى ، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود، من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف ، أو نخرجه ، فلما خُلع عليه لقب الملك الناصر، ولم يعطه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ، ولا خدموه ، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه ، فسعى مع المشطوب ، حتى أماله إليه ، وقال له : إنّ هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما، ثم قصد الحارمي ، وقال : هذا صلاح الدين ، هو ابن اختك ، وعزه ، وملكه لك ، وقد استقام له الأمر،فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ، ولا يصل اليك ، فمال إليه أيضاً ثم فعل مثل هذا بالباقين ، وكلهم أطاع ، غير عين الدولة الباروقي ، فإنه قال : أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام ، ومعه غيره من الأمراء ، وثبت قدم صلاح الدين ، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين ، وكان

نرر الدين يكاتبه بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده بكتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء

بالديار المصرية يفعلون كذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس ، وبذل الأموال ، فمالوا إليه ، وأحبوه وضعف أمر العاضد ، ثم أرسل صلاح الدين بطلب من نور الدين ، أنْ يرسل إليه إخوته وأهله ، فأرسلهم إليه ، وشرط عليهم طاعته ، والقيام بأمره ، ومساعدته، وكلهم فعل ذلك ، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين ، فأعطاها أهله والأمراء الذين معه ، وزادهم ، فازدادوا له حباً وطاعة .

قد اعتبرت التواريخ ، فرأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية التي يمكن ضبطها، ورأيت كثيراً ممن يبتدى الملك ، تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه ، منهم أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، أول من ملك من أهل بيته ، فتنقل الملك من أعقابه بني مروان من بني عمه ، ثم من بعده السفاح ، أول من ملك من بني العباس ، انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول مَنِ استبد منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه اسماعيل بن أحمد وأعقابه ، ثم يعقوب الصفار، وهو أول من ملك من أهل بيته ، فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه ، ثم عماد الدولة بن بويه ، أول من ملك من أهله ، انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعز الدولة، ثم خلص في أعقاب ركن الدولة ومعز الدولة، ثم خلص في أعقاب ركن الدولة، ثم الدولة السلجوقية، أول من ملك منهم طغرلبك ، انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود، ثم هذا شيركوه – كما ذكرناه – انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيوب ، ثم إنّ صلاح الدين ، لما أنشأ الدولة ، وعظمها ، وصار كأنه أول لها، نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل ، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب ، وهذه أعظم الدول الإسلامية ، ولولا خوف التطويل ، لذكرنا أكثر من هذا ، والذي أظنه السبب في ذلك ، أنّ الذي يكون أول دولة يكثر، ويأخذ الملك، وقلوب من كان فيه متعلقة به ، فلهذا يحرمه الله أعقابه، ومن يفعل ذلك من أجلهم، عقوبة له .

ذكر وقعة السودان بمصر

فى هذه السنة ، في اوائل ذي القعدة ، قُتِل مؤتمن الخلافة ، وهو خصي كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه ، والتقدم على جميع من يحويه ،

فاتفق هو، وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج ، واستدعائهم إلى البلاد، والتقوّي بهم على صلاح

الدين ومن معه ، وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه ، وأقاموا ينتظرون جوابه ، وممار ذلك إلى القاصد إلى البئر البيضاء، فلقيه إنسان تركماني ، فرأى معه نعلين جديدين ، فأخذهما منه ، وقال في نفسه : لو كان مما يلبسه هذا الرجل ، لكانا خلقين ، فإنه رث الهيئة ، وارتاب به وبهما ، فأتى به صلاح الدين ، ففتقهما فرأى الكتاب فيهما، فقرأه ، وسكت عليه ، وكان مقصود ، مؤتمن الخلافة ، أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية ، فإذا وصلوا إليها ، خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم ، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم ، فيقتلونهم ، ثم يخرجون ، بأجمعهم يتبعون صلاح الدين ، فيأتونه من وراء طهره ، والفرنج من بين يديه ، فلا يبقى لهم باقية، فلما قرأ الكتاب ، سأل عن كاتبه ، فقيل رجل يهودي ، فأُحضر فأمر بضربه ، وتقريره ، فابتدأ ، وأسلم ، وأخبره الخبر، وأخفى صلاح الدين الحال ، وأن مؤتمن الخلافة استشعر، فلازم القصر، ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد من صلاح الدين ، وصلاح الدين لا يُظهر له شيئاً من الطلب ، لئلا ينكر ذلك ، فلما طال الأمر، خرج من القصر إلى قرية له ، تعرف بالخرقانية للتنزه ، فلما علم به صلاح الدين ، أرسل إليه جماعة، فأخذ؟ه وقتلوه ، وأتوا برأسه ، وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش ، وهو خصي أبيض ، وكان لا يجري في القصر صغيرٌ ولا كبيرٌ ، إلا بأمره ، فنضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ، ولأنه كان يتعصب لهم ، فحشدوا وجمعوا .فزادت عدتهم علي ، خمسين ألفاً ، وقصدوا حرب الأجناد الإصلاحية، فاجتمع العسكر أيضاً ، وقاتلوهم بين القصرين ، وكثر القتل في الفريقين ، فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالهم وأولادهم ، فلما أتاهم الخبر بذلك ، ولّوا منهزمين ، فركبهم السيف ، وأُخذت عليهم أفواه السكك ، فطلبوا الأمان ، بعد أنْ كَثُر فيهم القتل ، فأُجيبوا إلى ذلك ، فاخرجوا من مصر، إلا الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة، أخو صلاح الدين الأكبر، في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف ، ولم يبق منهم إلا القليل الشريد ، وكفى الله تعالى شرهم ، والله أعلم .

ذكر ملك شملة فارس ، واخراجه عنها

في هذه السنة، ملك شملة صاحب خوزستان ، بلاد فارس، وأُخرج عنها

.

وسبب ذلك ، أن زنكي بن دكلا، صاحبها اساء السيرة، مع عسكره ، فأرسلوا إلى شملة بخوزستان ، وحسّنوا له قصد فارس ، فجمع عساكره ، وتجهز، وسار إليها، فخرج إليه زنكي بن دكلا، ووقعت بينهم حرب ، خامر فيها أصحاب زنكي عليه ، فانهزم في شرذمة من عسكره ، ونجا بنفسه ، وقصد الأكراد الشوانكار، والتجأ إليهم ، فأجاره صاحبها وأحسن ضيافته ، ونزل شملة ببلاد فارس ، فملكها، فأساء السيرة إلى أهلها، ونهب ابن أخيه ، ابن شنكا ، البلاد ، فتغيرت بواطن أهلها عليه ، واجتمع إلى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه ، لما رأوا من سوء سيرة شملة ، واستعاد زنكي بلاده ، ورجع إلى ملكه ، وعاد شملة إلى بلاد خوزستان .

ذكر ملك ايلدكز الري

في هذه السنة، ملك ايلدكز مدينة الري ، والبلاد التي كانت بيد اينانج ، وسبب ذلك ، أن ايلدكز كان ، قد استقر الأمر بينه وبين إينانج على مال يؤديه إلى ايلدكز، فمنعه سنتين ، فأرسل ايلدكز يطلب المال ، فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته ، فتجهز ايلدكز، وقصد الري ، فالتقاه اينانج ، وحاربه حرباً عظيماً، فانهزم اينانج ، ومضى منهزماً، فتحصن بقلعة طبرك ، فحصره ايلدكز فيها، وراسل سراً، جماعة من مماليكه ، فأطمعهم في الإقطاعات ، والأموال ، والإحسان العظيم ، ليقتلوا اينانج ، فقتلوه ، وكانوا جماعة كثيرة، وسلموا البلد إلى ايلدكز، فرتب فيه عمر بن علي ياغ ، وعاد إلى همذان ، ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج ، وسلموا البلد إليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغي أن لا يستخدموا ، وأبعدهم عنه ، فتفرقوا في البلاد، فسار بعضهم ، وهو الذي تولى قتله ، إلى خوارزمشاه ، فصلبه خوارزمشاه ، نكالاً بما فعل بصاحبه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، رؤي في دار الخليفة، رجل غريب ، في الطريق التي يركب فيه ، وفي يده سكين صغيرة ، وفي يده الأخرى سكين كبيرة ، فأخذوه ، وقرروه ، فقال : أنا من حلب ، فَحُبس ، وعوقب البواب ، ولم يُعلم من أين دخل .

وفيها قبض ابن البلدي ، وزير الخليفة، على الحسين بن محمد، المعروف بابن السيني ، وعلى أخيه الأصغر، وكانا ابني عمة عضد الدين ، أستاذ الدار، وكان الأصغر

عامل البيمارستان ، فقطعت يده ورجله ، قيل كان عنده صنج ، يقبض بها ، ويحمل إلى الديوان بالصنج الصحيحة ، وقيل غير ذلك ، وحمل إلى البيمارستان ، فمات به ، وكان شاعراً ، فمن شعره ، وهو محبوس ، هذه الأبيات :

١ سلامٌ على أهلي وصحبي وجُلاسي ومَنْ في فؤادي ذكرُهُمْ راسبٌ راسي

٢ أعالجُ فيكُم كلّ هم ، ولا أرى لداءِ همومي غير رؤيتِكم آسي

٣ لقد أبدتِ الأيامُ لي كلّ شدةٍ تشيبُ لها الأكبادُ فضلاً عن الراسِ

٤ فيا ابنة عبد اللهِ صبراً على الذي لقيتُ فهذا الحكمُ من مالكِ الناسِ

٥ فلو أبصرتْ عيناكِ ذلي بكيتِ لي بدمعٍ سويّ بالمدامعِ رجاسِ

٦ أقول لقلبي والهمومُ تنوشَهُ وقد حدثته النفسُ بالضرِ واليأسِ

٧ فلوْ هم طيف مِنْ خيالي يزوركُمْ لمانَعَهُ دونَ المغالقِ حراسى

وما حذري إلا على النّفسِ لا على سواها لأني حلفُ فقرٍ وإفلاسِ

وفيها توفي المعمر بن عبد الواحد بن رجار أبو أحمد الأصفهاني الحافظ ، يروي عن أصحاب أبي نعيم ، وكان موته بالبادية ذاهباً إلى الحج في ذي القعدة .

وفي رجب منها، توفي الشيخ أبو محمد الفارقي ، المتكلم على الناس ، وكان أحد الزهاد، له كرامات كثيرة، وكان يتكلم على الخاطر، وكلامه مجموع مشهور.

وفيها، مات جعيفر الرقاص ، من ندماء دار الخلافة .

وفي شوال منها، توفي القاضي أبو الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي .

وفي ذي الحجة، توفي نجم الدين بن محمد بن علي بن القاسم الشهرزوري ، قاضي الموصل ، وولي ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ذكر حصر الفرنج دمياط

في هذه السنة، في صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط ، من الديار المصرية، وحصروها ، وكان الفرنج بالشام ، لما ملك أسد الدين شيركوه مصر، قد خافوه ، وأيقنوا بالهلاك ، وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية ، والأندلس ، وغيرها ، يستمدونهم ، ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم ، فأرسلوا جماعة من القسوس ، والرهبان ، يحرضونهم على الحركة ، فأمدوهم بالأموال ، والرجال والسلاح ،واستعدوا للنزول على دمياط ، طناً منهم أنهم يملكونها ، ويتخذونها ظهر يملكون به الديار المصرية ، { ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً} (ا) فإلى أنْ دخلوا ، كان أسد الدين قد مات ، وملك صلاح الدين ، فاجتمعوا عليها ، وحصروها ، وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالأموال ، والسلاح ، والذخائر، وأرسل إلى نور الدين ، يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول : إِني إن تأخرتُ عن دمياط ، ملكها الفرنج ، وإنْ سرت إليها، خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي ، وساروا في أثري ، والفرنج أمامي ، فلا يبقى لنا باتية، فسير نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية، فنهبها ، وأغار عليها ، واستباحها ، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ، ونهبها ، وتخريبها رجعوا خائبين ، لم يظفروا بشيء ، ووجدوا بلادهـ م خراباً ، وأهلها بين قتيل وأسير، فكانوا موضع المثل (خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين) . وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً،

(1) سورة الأحزاب 25 .

أخرج فيها صلاح الدين أموالًا لا تحصى . حكي أنه قال : ما رأيت أكرمَ من العاضد، أرسل إليّ مرة، لمقام الفرنج على دمياط ، ألف ألف دينار مصرية ، سوى الثياب وغيرها .

ذكر حصر نور الدين الكرك

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، سار نوت الدين إلى بلد الفرنج ، فحصر الكرك ، وهو من أمنع المعاقل ، على طرف البر، وكان سبب ذلك ، أن صلاح الدين ، أرسل إلى نور الدين ، يطلب أن يرسل إليه ، والده نجم الدين أيوب ، فجهزه نور الدين ، وسيره ، وسير معه عسكراً ، واجتمع معه من التجار خلقٌ كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة، فخاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إِلى الكرك ، فحصره وضيق عليه ، ونصب عليه المنجنيقات ، فاتاه الخبر أنّ الفرنج قد جمعوا له ، وساروا إليه ، وقد جعلوا في مقدمتهم إليه ابن هنفري ، وقريب من الرقيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتهما، فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ، ليلقاهما ومن معهما ، قبْل أنْ يلتحق بهما باقي الفرنج ، فلما قاربهما ، رجعا القهقرى ، واجتمعا بباقي الفرنج ، وسلك نور الدين وسط بلادهم ، ينهب ، ويحرق ما على طريقه من القرى ، إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام ، فنزل على عشترا ، وأقام ينظر حركة الفرنج ، ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم ، فأقام هو حتى أتاهم خبر الزلزلة الحادثة ، فرحل ، أما نجم الدين أيوب ، فإنه وصل إلى مصر سالماً، هو ومن معه ، وخرج العاضد الخليفة، التقاه ، إكراماً له .

ذكر غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازي بن أرتق ، صاحب قلعة البيرة، قد سار في عسكره ، وهو في مائتي فارس ، إلى نور الدين ، وهو بعشترا، فلما وصل إلى قرية اللبوة، وهى من عمل بعلبك ، ركب متصيداً ، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج ، قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام ، سابع عشر شوال ، فوقع بعضهم على بعض ، واقتتلوا، واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، لا سيما المسلمون ، فإن ألف فارس ، لا يصبرون لحملة ثلاثمائة فارس

أفرنجية، وكثُر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج ، وعمهم القتل ، والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به ، وسار شهاب الدين برؤوس

القتلى وبالأسرى إلى نور الدين ، فركب نور الدين والعسكر، فلقوهم فرأى نور الدين في الرؤوس ، رأس مقدم الاسبتار، صاحب حصن الأكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين .

ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام

في هذه السنة أيضاً، ثاني عشر شوال ، كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة، لم ير الناس مثلها ، وعمت أكثر البلاد من الشام ، والجزيرة ، والموصل ، والعراق ، وضرها من البلاد ، وأشدها كان بالشام ، فخرجتْ كثيراً من دمشق ، وبعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر، وبعرين ، وحلب ، وغيرها ، وتهدمت أسوارها ، وقلاعها ، وسقطت ا لدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحد، فلما أتاه الخبر سار إلى بعلبك ، ليعمر ما انهدم من سورها وقلعتها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد، وخراب أسوارها وقلاعها، وخلوها من أهلها، فجعل ببعلبك من يعمرها، ويحفظها، وسار إلى حمص ، ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماه ، ثم إلى بعرين ، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ، ثم أتى مدينة حلب ، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ ، وكانوا لا يقدرون ياوون مساكنهم خوفاً من الزلزلة ، فأقام بظاهرها ، وباشر عمارتها بنفسه ، فلم يزل كذلك ، حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها ، وأما بلاد الفرنج فإن الزلازل أيضاً عملت بها كذلك ، فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفاً من نور الدين عليها، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفاً من الأخر.

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي ، وملك ابنه سيف الدين غازي

في هذه السنة في ذي الحجة، مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل ، بالموصل ، وكان مرضه حمى حادة، ولما اشتد مرضه ، وصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي ، وعدل عنه إلى ابنه الأخر سيف الدين غازي ، وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود، لأن القيم بأمور دولته ، والمقدم فيها، كان خادماً له ، يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ، ولأنه زوج ابنته ، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح ، فاتفق فخر الدين ، وخاتون ابنة حسام الدين تمرتش بن ايلغازي ،

وهي والدة سيف الدين ، على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين ، فدخل عماد الدين إلى عمه نور الدين ، مستنصراً به ليعينه على أخذ الملك لنفسه ، وتوفي قطب الدين وعمره نحو أربعين سنة، وكان ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً ، وكان فخر الدين هو المدبر للأمور والحاكم في الدولة، وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسناً إليهم ، كثير الإنعام عليهم ، محبوباً إلى كبيرهم ، وصغيرهم ، عطوفاً على شريفهم ووضيعهم ، كريم الأخلاق ، حسن الصحبة لهم ، فكان القائل أراده بقوله :

خُلُق كماءِ المُزْنِ طيبُ مذاقةِ ... والروضةِ الغناءِ طيبُ نسيمِ
كالسيفِ لكن فيه حلم واسع ... عمن جَنَى والسيفُ غيرُ حليمِ
كالغيثِ إلا أن وابلَ جودِهِ ... أبداً وَجَوْدَ الغيثِ غيرُ مقيمِ
كالدّهرِ إلّا أنه ذُو رَحْمَةٍ ... والدهر قاسي القلب غيرُ رحيمِ

وكان سريع الانفعال للخير، بطيئاً عن الشر، جم المناقب ، قليل المعايب رحمه

الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين ، بمنه ، وكرمه ، أنه جواد كريم .

ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها

حدثني والدي ، رحمه الله ، قال : كنت أتولى جزيرة ابن عقْر، لقطب الدين –كما علمتم –، فلما كان قبل موته بيسير، أتانا كتاب من الديوان بالموصل ، يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة منها دجلة، ولها بساتين كثيرة، بعضها يمسح ، فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ، وبعضها مطلق عن الجميع ، قال : وكان لي فيها ملك كثير، فكنطَ أقول : إنّ المصلحة أنْ لا يغير على الناس شيء ، وما أقول هذا لأجل ملكي ، فإنني أنا أمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة، فجاءنى كتاب النائب يقول : لا بد من المساحة، قال : فأظهرت الأمر، وكان بها قومٌ صالحون ، لي بهم أنس ، وبيننا مودة، فجاءني الناس كلهم ، وأولئك معهم ، يطلبون المراجعة ، فأعلمتهم أني راجعت ، وما أجبت إلى ذلك ، فجاءني منهم رجلان ، أعرف صلاحهما، وطلبا مني المعاودة، ومخاطبة ثانية ، ففعلت ، فأصروا على

المماسحة ، فعرفتهما الحال ، قال : فما مضى إلا عدة أيام ، وإذ قد جاءني الرجلان ، فلما رأيتهما، ظننت أنهما جاءا يطلبان المعاودة، فعجبت

منهما، وأخذت أعتذر إليهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا وإنما جئنا نعرفك أنّ حاجتنا قُضيت ، قال : فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما، فقلت : من الذي خاطب في هذا بالموصل ؟ فقالا: إنّ حاجتنا قد قُضيت من السماء، ولكافة أهل العقيمة، قال : فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما، ثم قاما عني فلم يمض غير عشرة أيام ، لاذا قد جاءنا كتاب من الموصل ، يأمرون بإطلاق المساجين ، والمحبوسين ، والمكوس ، ويأمرون بالصدقة ، ويقال إنّ السلطان ، يعني قطب الدين ، مريض ، يعني على حالة شديدة، ثم بعد يومين أو ثلاثة ، جاءنا الكتاب بوفاته ، فعجبت من قولهما ، واعتقدته كرامة لهما ، فصار والدي ، بعد ذلك ، يكثر إكرامهما واحترامهما ، ولزورهما .

ذكر الحرب بين عسكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش

كان محمد بن سعيد بن مردنيش ، ملك شرق الأندلس ، قد اتفق هو والفرنج ، وامتنع على عبد المؤمن ، وابنه بعده ، فاستفحل أمره ، لا سيما، بعد وفاة عبد المؤمن ، فلما كان هذه السنة، جهز إليه يوسف بن عبد المؤمن ، فجاسوا بلاده ، وخربوها، وأخذوا مدينتين من بلاده ، وأخافوا عساكره ، وجنوده ، وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ، ويجبون أموالها .

ذكر وفاة صاحب كرمان والخُلف بين أولاده

في هذه السنة ، توفي الملك طغرل بن قاورت ، صاحب كرمان ، واختلف أولاده ، بهرام شاه وأرسلان شاه ، وهو الأكبر، وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه إلى خراسان ، فدخل على المؤيد صاحب نيسابور، واستنجده ، فانجده بعساكر سار بها إلى كرمان ، فجرى بين الأخوين حرب ، طفر فيها بهرام شاه ، وهرب أرسلان شاه ، فقصد أصفهان مستجيراً بإيلدكز، فانفذ معه عسكراً ، واستنفذوا البلاد من بهرام شاه ، وسلموها إلى أخيه أرسلان شاه ، فعاد بهرام شاه إلى نيسابور مستجيراً بالمؤيد، صاحبها ، فأقام عنده " فاتفق أن أخاه أرسلان شاه مات ، فسار إلى كرمان ، فملكها ، وأقام بها بغير منازع .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، كثرت الأذية من عبد الملك بن عطاء، وتطرق إلى بلاد حلوان ، ونهب ، وأفسد، وأخذ من الحجاج ، فانفذ إليه من بغداد عسكر، فنازلوه في قلاعه ، وضايقوا ، ونهبوا أمواله ، وأموال أهله ، حتى أذعن بالطاعة ، ولا يعاود أذى الحجاج ، ولا غيرهم ، فعاد عنهم العسكر، وفيها توفي مجد الدين أبو بكر بن الداية، وهو رضيع نور الدين ، وكان أعظم الأمراء منزلة، عنده ، وله في اقطاعه ، حلب ، وحارم ، وقلعة جعبر، فلما توفي ، رد نور الدين ، ما كان له ، إلى أخيه شمس الدين علي بن الداية .

وفيها في شعبان ، توفي أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلي ، وهو من مشهوري المحدثين (الجبلي) بالجيم والياء تحتها نقطتان .

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله

فى هذه السنة ، تاسع ربيع الآخر، توفي المستنجد باللّه أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي النسب في غير موضع ، وأمه أم ولد اسمها طاوس ، وقيل نرجس ، رومية، ومولده مستهل ربيع الأخر، سنة عشر وخمسمائة، وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية، وكان سبب موته ، أنّه مرض ، واشتد مرضه ، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قايماز المقتفوي ، وهو حينئذٍ أكبر أمير ببغداد ، فلما اشتد مرض الخليفة ، اتفقا، ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع لضعفه ، ثم إنه دخل ، وأغلق عليه بابه ، فمات ، وهكذا سمعت ، من غير واحد ممن يعلم الحال ، وقيل : إن الخليفة كتب إلى وزيره ، مع طبيبه ابن صفية، يأمره بالقبض على أستاذ الدار، وقطب الدين ، وصلبهما ، فاجتمع ابن صفية باستاذ الدار، وأعطاه خط الخليفة، فقال له : تعود، وتقول إنني أوصلت الخط إلى الوزير، ففعل ذلك ، وحضر أستاذ الدار قطب الدين ، ويزدن أخاه تنامش ، وعرض الخط عليهم ، فاتفقوا على قتل الخليفة، فدخل إليه يزدن وقايماز الحميدي ، فحملاه إلى الحمام ، وهو يستغيث ، وألقياه ، وأغلقا الباب عليه ، وهو يصيح ، إلى أن مات ، رحمه اللّه ، وكان وزيره أبا جعفر بن البلدي ، وبينه وبين أستاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة ، لأن المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما، فيفعلهما فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما، فلما مرض المستنجد، وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهما ، بالعدد، فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل إليه عضد الدين ، يقول : إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض ، وأقبلت العافية، فخاف الوزير أن يدخل دار

الخلافة بالجند، فربما أنكر عليه ذلك ، فعاد إلى داره ، وتفرق الناس عنه ، وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعد للهرب لما ركب الوزير، خوفاً منه إنْ دخل الدار أنْ يأخذهما ، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار، وأظهروا وفاة المستنجد ، وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن ، وبايعاه بالخلافة، ولقباه المستضيء بأمر الله ، وشرطا عليه شروطاً ، أنْ يكون عضد الدين وزيراً ، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك ، ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن إلا الحسن ابن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله ، واتفقا في الكنية والكرم ، فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة، يوم توفي أبوه ، وبايعه الناس من الغد في التاج ، بيعة عامة، وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه ، وفرق أموالًا جليلة المقدار، وعلم الوزير ابن البلدي ، فسقط في يده ، وقرع سنه ندماً، على ما فرط في عوده ، حيث لا ينفعه ، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء ، فمضى إلى دار الخلافة، فلما دخلها صُرِف إلى موضع ، وقُتِل ، وقُطِع قطعاً،وألقي في دجلة، رحمه الله ، وأخذا جميع ما في داره ، فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله ، يأمره فيها بالقبض عليهما، وخط الوزير قد راجعه في ذلك ، وصرفه عنه ، فلما وقفا عليها، عرفا براءته مما كانا يظنا فيه ، فندما، حيث فرطا في قتله ، وكان المستنجد بالله منْ أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلاً فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق كثيراً من المكوس ، ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس .

بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ، فأطال حبسه ، فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وتحضر لي إنسانا آخر مثله ، لأكف شره عن الناس ، ولم يطلقه وردَّ كثيراً من الأموال على أصحابها أيضاً، وقبض على القاضي ابن المرخم ، وأخذ منه مالًا كثيراً ، فأعاده على أصحابه أيضاً ، وكان ابن المرخم ظالماً جائراً في أحكامه .

لما بلغ نور الدين محموداً، وفاة أخيه قطب الدين مودود، صاحب الموصل ، وملك ولده سيف الدين غازي الموصل ، والبلاد التي كانت لأبيه ، بعد وفاته ، وقام فخر الدين عبد المسيح بالأمر معه ، وتحكمه عليه ، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من

خشونة سياسته ، فقال : أنا أولى بتدبير أولاد أخي ، وملكهم ، وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلة من العسكر، وعبر الفرات عند قلعة جعبر، مستهل المحرم ، من هذه السنة ، وقصد الرقة فحصرها، وأخذها، ثم سار إلى الخابور، فملكه جميعه ، وملك نصيبين ، وأقام بها ، فجمع العساكر، فاتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود ، صاحب حصن كيفا، وكثُر جمعه ، وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام ،لحفظ ثغوره ، فلما اجتمعت العساكر، سار إِلى سنجار، فحصرها ، ونصب المنجنيقات ، وملكها ، وسلمها إلى عماد الدين ، ابن أخيه قطب الدين ، وكان قد جاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سراً ، يبذلون له الطاعة ،ويحثونه على الوصول إليهم ، فسار إلى الموصل ، فاتى مدينة بلد ، وعبر دجلة عندها ، مخاضة إلى الجانب الشرقي ، وسار، فنزل شرقي الموصل ، على حصن نينوى، ودجلة، بينه وبين الموصل ، ومن العجب ، أنّ يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ، قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين أيلدكز، صاحب همذان ، وبلد الجبل ، وأذربيجان ، وأصفهان ، والري ، وتلك الأعمال ، يستنجده على عمه نور الدين ، فأرسل أيلدكز رسولاً إلى نور الدين ، ينهاه عن التعرض إلى الموصل ، ويقول له : إِنّ هذه البلاد للسلطان ، فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أصلح لأولاد أخي منك ، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من إصلاح بلادهم ، يكون الحديث معك على باب 5لحذان ، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة، وأهملت الثغور، حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا، ولي مثل ربع بلادك ، بالفرنج ، وهم أشجع العالم ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، ولا يحل لي السكوت عنك ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت ، وإزالة الظلم عن المسلمين ، فأقام نور الدين على الموصل ، فعزم من بها من الأمراء، على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح وتسليم البلد إلى نور الدين ، فعلم ذلك ، فأرسل إلى نور الدين قي تسليم البلد إليه ، على أن يقره بيد سيف الدين ، ويطلب لنفسه الأمان ولما له ، فأجابه إلى ذلك ،وشرط أنّ فخر الدين يأخذه معه إلى الشام ، ويعطيه عنده إقطاعاً يرضيه ، فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ودخل القلعة

من باب السر، لأنه لمّا بلغه عصيان عبد المسيح عليه ، حلف أنْ لا يدخلها إلا من أحصن موضع فيها، ولما ملكها، أطلق ما بها من المكوس، وغيرها، من أبواب المظالم ، وكذلك فعل بنصيين وسنجار والخابور،

وهكذا كان جميع بلاده من الشام ، ومصر، ووصله ، وهو على الموصل يحاصرها، خلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله ، فلبسها، ولماملك الموصل ، خلعها على سيف الدين ، ابن اخيه ، وأمره ، وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري ، وركب هو بنفسه إلى موضعه ، فرآه ، وصعد منارة مسجد أبي حاضر، فاشرف منها على موضع الجامع ، فأمر أنْ يضاف إلى الأرض ، التي شاهدها ، ما يجاورها من الدور والحوانيت ، وأنْ لا يؤخذ منها شيء ، بغير اختيار أصحابه ، وولي الشيخ محمد الملا عمارته ، وكان من الصالحين الأخيار، فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان ، وعمره ، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة . وأما نور الدين ، فإنه عاد إلى الشام ،واستناب في قلعة الموصل خصياً كان له ، اسمه كمشتكين ، ولقبه سعد الدين ، وأمر سيف الدين ، أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير، وحكمه ، وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين ، ابن اخيه قطب الدين ، فلما فعل ذلك ، قال كمال الدين بن الشهرزوري : هذا طريق إلى أذى يحصل ببيت أتابك ، لأن عماد الدين كبير، لا يرى طاعة سيف الدين ، وسيف الدين ، هو الملك ، لا يرى الإغضاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف ، ويطمع الأعداء ، فكان كذلك – على ما نذكره – سنة سبعين وخمسمائة ، وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما، واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح ، وغير اسمه ، فسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كبيراً .

ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي هذه السنة ، سار صلاح الدين أيضاً، عن مصر إلى بلاد الفرنج ، فأغار على أعمال عسعقلان ، والرملة ، وهجم على ربض غزة، فنهبه ، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين ، لرده عن البلاد، فقاتلهم ، وهزمهم ، وأفلت ملك الفرنج ، بعد أنْ أشرف أنْ يؤخذ أسيراً، وعاد إِلى مصر، وعمل مراكب مفصلة، وحملها قطعاً علىٍ الجمال في البر، وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب ، وألقاها في البحر، وحصر أيلة برا وبحراً ، وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها، وما فيها، وعاد إلى مصر.

ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة

كان بمصر دار للشحنة ، تسمى دار المعونة ، يحبس فيها منْ يريد حبشه ، فهدمها

صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من الظلم ، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضاً، وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة، وأقام قاضياً شافعياً في مصر، فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة . ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ، اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، منازل العز بمصر، وبناها مدرسة للشافعية .

وفيها أغار شمس الدولة تورانشاه ، أخو صلاح الدين ، على الأعراب الذين بالصعيد، وكانوا قد أفسدوا في البلاد، ومدوا أيديهم ، فكفوا عما كانوا يفعلونه .

وفيها مات القاضي ابن الخلال ، من أعيان الكتاب المصريين ، وفضلائهم ، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها .

وفيها، وقع حريق ببغداد، في درب المطبخ ، وفي خرابة ابن جردة .

وفيها توفي الأمير نصر بن المستظهر بالله ، عم المستنجد بالله ، وحموه ، وهو آخر

من مات من أولاد المستظهر بالله ، وكان موته في ذي القعدة، ودفن في الترب بالرصافة .

وفيها، جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار، صاحب المخزن ببغداد، ولُقب ظهير الدين .

وفيها، حج بالناس ، الأمير طاشتكين المستنجدي ، وكان نعم الأمير، رحمه الله ،

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر،

وانقراض الدولة العلوية

في هذه السنة، في ثاني جمعة من المحرم ، قطعت خطبة العضد لدين الله أبي محمد الإمام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله ، وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة، وخوطبوا بأمرة المؤمنين ، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه بمصر، وأزال المخالفين له ، وضعف أمر الخليفة بها، العاضد، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ، ونائبه قراقوش ، وهو خصي كان من أعيان الأمراء الأسدية ، كلهم يرجعون إليه ، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة المستضيئية، فاشنع صلاح الدين ، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم ، لميلهم إلى العلويين ، وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة بهم ، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين ، فإنه كان يخاقه أن يدخل إلى الديار المصرية ، يأخذها منه ، فكان يريد يكون العاضد معه ، حتى إنْ قصده نور الدين ، امتنع به ، وبأهل مصر، عليه ، فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك ، لم يقبل عذره ، وألح عليه بقطع خطبته ، وألزمه إلزاماً، لا فسحة له في مخالفته ، وكان على الحقيقة نائب نور الدين ، واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت ، مرضاً شديداً ، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته ، استشار أمراءه ، فمنهم مات أشار به ، ولم يفكر في المصريين ، ومنهم من خافه ، الا أنه ما يِمكنه إلا امتثال أمر نور الدين ،

وكان قد دخل إلى مصر، إنسان أعجمي ، يعرف بالأمير العالم ، رأيته أنا بالموصل ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، وأنّ أحداً لا يتجاسر، يخطب للعباسي ، قال : أنا ابتدىء بالخطبة له ، فلما كان أول جمعة من المحرم ، صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للمستضيء ، ففعلوا ذلك ، فلم يتنطح فيها عنزان ، وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعلوا ، وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا إنْ عوفي فهو يعلم ، وإنْ توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته ، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع الخطبة، ولما توفي ، جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه ، فحفظه بهاء الدين قراقوش ، الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين ، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة الأشياء الغريبة، ما تخلو الدنيا عن مثله ، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم ، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً، أنا لا أشك فإنني رأيته ، ووزنته ، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ، ومنه النصاب الزمرد، الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير، ووجد فيه طبل ، كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ ، فلما رأوه ظنوه عُمل لأجل اللعب قيه ، فسخروا من العاضد، فاخذ إنسان ، فضرب به ، فضرط ، فتضاحكوا منه ، ثم آخر كذلك ، وكان كل من ضرب به ، ضرط ، فألقاه أحدهم ، فكسره ، فإذا الطبل لأجل قولنج ، فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك ، وكان فيه من الكتب النفيسة، المعدومة المثل ، ما لا يعد، فباع جميع ما فيه ، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم ، وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد، فباع البعض ، وأعتق البعض ، ووهب البعض ، وخلا القصر من سكانه ، كان لم يغن بالأمس فسبحان الحي الدائم ، الذي لا يزول ملكه ، ولا تغيره الدهور، ولا يقرب النقص حماه ، ولما اشتد مرض العاضد، أرسل إِلى صلاح الدين يستدعيه ، فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه ، وكان يصفه كثيراً بالكرم ، ولين الجانب ، وغلبة الخير على طبعه ، وانقياده ، وكان في فسبه تسع خطب لهم بالخلافة، وهم الحافظ ، والمستنصر ، والظاهر ، والحاكم ،

والعزيز، والمعز، والمنصور ، والقائم ، والمهدي ، ومنهم من لم يخطب له بالخلافة، أبوه يوسف بن الحافظ ، وجد أبيه ، وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر، وبقي من خطب له بالخلافة، وليس من آبائه

المستعلي ، والأمر، والظافر–، والفائز، وجميع من خطب له منهم بالخلافة ، أربعة عشر خليفة ، منهم ، بأفريقية المهدي ، والقائم ، والمنصور، والمعز، إلى أن سار إِلى مصر، ومنهم بمصر، المعز، المذكور، وهو أول من خرج إليها من أفريقية، والعزيز، والحاكم والظاهر ، والمستنصر، والمستعلي ، والأمر، والحافظ ، والظافر والفائز، والعاضد، وجميع مدة ملكهم ، من حين ظهر المهدي بسجلماسة، في ذي الحجة من شنة تسع وتسعين ومائتين ، إلى أن توفي العاضد، مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريباً ، وهذا دأب الدنيا ، لم تعط إلا واستردت ، ولم تحل ، إلا وتمررت ، ولم تصف ، إلا وتكدرت ، بل صفوها لا يخلو من الكدر، وكدرها قد يخلو من الصفو، نسأل الله تعالى أن يقبل قلوبنا إليه ، ويرينا الدنيا حقيقة، ويزهدنا فيها، ويرغبنا في الآخرة، إنه سميع الدعاء، قريب من الإجابة .

ولما وصلت البشارة إلى بغداد، بذلك ، ضُربت البشائر بها عدة أيام ، وزُينت بغداد، وطهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه ، وسُيرت الخلع مع عماد الدين صندل ، وهو من خواص الخدم المقتفوية ، والمقدمين في الدولة ، لنور الدين ، وصلاح الدين ، فسار صندل إلى نور الدين ، وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين ، وللخطباء ، بالديار المصرية ، والأعلام السود ، ثم إن هذا صندلا صار أستاذ دار الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد، وكان يدري الفقه على مذهب الشافعي ، وسمع الحديث ، ورواه ، ويعرف أشياء حسنة، وفيه دين ، وله معروف كثير، وهو من محاسن بغداد .

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا

في هذه السنة، جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين ، ولم يظهر ذلك ، وكان سببه ، أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب ، سار عن مصر في صفر من هذه السنة ، إلى بلاد الفرنج ، غازياً، ونازل حصن الشوبك ، وبينه وبين الكرك يوم ،

وحصره ، وضيق على من به من الفرنج ، وأدام القتال ، وطلبوا الأمان ، واستمهلوه عشرة أيام ، فأجابهمٍ إلى ذلك ، فلما سمع نور الدين ، بما فعله صلاح الدين ، سار عن دمشق ، قاصدا بلاد الفرنج أيضاً، ليدخل إليه من

جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين : إن دخل نور الدين بلاد الفرنج ، وهم على هذه الحال ، أنت من جانب ، ونور الدين من جانب ، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق ، وأخذ ملكهم ، لم يبق بديار مصر مقام

مع نور الدين ، وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا، فلا بد لك من الاجتماع به ، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك ، بما شاء إن شاء تركك أولاً، فقد لا تقدر على الامتناع عليه ، والمصلحة الرجوع إلى مصر، فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذ، من الفرنج ، وكتب إلى نور الدين ، يعتذر باختلال البلاد المصرية ، لأمور بلغته ، عن بعض شيعته العلويين ، وإنهم عازمون على الوثوب بها، فإنه يخاف عليها من البعد عنها، أن يقوم أهلها على من تخلف بها، فيخرجوهم ، وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه ، وتغير عليه ، وعزم على قصد مصر، وإخراجه عنها، وظهر ذلك ، فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله ، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين الحارمي ، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين ، وحركته إليه واستشارهم ، فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين ، فقال : إذا جاءنا قاتلناه ، ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهلهم ، فشتمهم نجم الدين أيوب ، وأنكر ذلك ، واستعظمه ، وشتم تقي الدين ، وأقعده وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا خالك شهاب الدين ، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت ، أنا وهذا خالك ، نور الدين ، لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف ، لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه ، ونوابه فيها ، فإن أراد سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب ، تقول فيه ، بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد ، فأي حاجة إلى هذا ، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك ، وما ههنا من يمتنع ، وقام الأمراء، وغيرهم ، وتفرقوا على هذا، فلما خلى به أيوب ، قال له : بأي عقل فعلت هذا ، أما تعلم أن نور الدين ، إذا سمع عزمنا على منعه ، ومحاربته ، جعلنا أهم الوجوه إليه ، وحينئذ لا نقوى عليه ، وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له ، تركنا ، واشتغل بغيرنا ، والأقدار تعمل عملها، ووالله لو أراد نور الدين قصبة، من قصب السكر، لقاتلته أنا عليها، حتى أمنعه أو أقتل ، ففعل صلاح الدين ما أشار به ، فترك نور الدين قصده ، واشتغل بغيره ، فكان الأمر كما ظنه

أيوب ، فتوفي نور الدين، ولم يقصده ، وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام

وفي هذه السنة ، خرج مركبان من مصر إلى الشام ، فارستا بمدينة لاذقية ، فأخذهما الفرنج ، وهما مملوءتان من الأمتعة والتجارة ، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة ، فنكثوا ، وغدروا ، فأرسل نور الدين إليهم في المعنى ، وإعادة ما أخذوه من أموال التجار، فغالطوه ، واحتجوا بأمور منها، أنّ المركبين كانا قد انكسرا ، ودخلهما الماء، وكان الشرط أن كل مركب ينكسر، ويدخله الماء، يأخذونه ، فلم يقبل مغالطتهم ، وجمع العساكر، وبث السرايا في بلادهم ، بعضها نحو أنطاكية ، وبعضها نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة، وخرب ربضة، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيثا وعريمة، فأخذهما عنوة، ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بعرقة فسار في العساكر جميعها، إلى أن قارب طرابلس ، ينهب ، ويخرب ، ويحرق ، ويقتل ، وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، ففعلوا نجي ولايتها مثل ما فعل قي ولاية طرابلس ، فراجعه الفرنج ، وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين ، وتجديد الهدنة ، معهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وأعادوا ما أخذوا ، وهم صاغرون ، وقد خربت بلادهم ، وغنمت أموالهم .

ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده

في هذه السنة، توفي الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، صاحب البلاد، بشرق الأندلس ، وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ، ووصى أولاده ، أن يقصدوا ، بعد موته ، الأمير أبا يعقوب ، وكان قد اجتاز إلى الأندلس ، في مائة ألف مقاتل ، قبل موت ابن مردنيش ، فحين رآهم يوسف ، فرح بهم ، وسره قدومهم عليه ، وتسلم بلادهم وتزوج أختهم ، وأكرمهم ، وعظم أمرهم ، ووصلهم بالأموال الجزيلة ، وأقاموا معه .

ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه

في هذه السنة ، عبر الخطا نهر جيحون ، يريدون خوارزم ، فسمع صاحبها، خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز، فجمع عساكره ، وسار إلى أمرية ليقاتلهم ، ويصدهم ، فمرض وأقام بها، وسير بعض جيشه مع أمير كبير إليهم ، فلقيهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم الخوارزميون ، وأسر مقدمهم ، ورجع به الخطا إلى ما وراء النهر،

وعاد خوارزمشاه إلى خوارزم مريضاً .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، اتخذ نور الدين بالشام ، الحمام الهوادي ، وهى التي يقال لها المناسيب ، وهي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده ، وسبب ذلك ، أنه لما اتسعت بلاده ، وطالت مملكته ، وعرضت أكنافها ، وتباعدت أوائلها عن أواخرها ، ثم إنها جاورت بلاد الفرنج ، وكانوا ، ربما ، نازلوا حصناً من ثغوره ، فالى أن يصل الخبر، ويصل إليهم ، قد بلغوا غرضهم منه ، أمر بالحمام ليصل الخبر اليه في يومه . وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها، وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين .

وفيها عزل الخليفة ، المستضيء بأمر الله ، وزيره ، عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء، لأن قطب الدين قايماز ألزمه بعزله ، فلم يمكنه مخالفته .

وفيها، مات أبو محمد عبد الله بن أحمد الخشاب اللغوي ، وكان قيماً بالعربية، وسمع الحديث .

وفيها مات البوري ، الفقيه الشافعي ، تفقه على محمد بن يحيى ، وقدم بغداد، ووعظ ، وكان يذم الحنابلة ، وكثرت أتباعه ، فأصابه إسهال ، فمات هو وجماعة من أصحابه ، فقيل إن الحنابلة أعدوا له حلوا ، فأكل منها ، فمات وكل من أكل منها .

وفيها ، مات القرطبي أبو بكر يحمص بن سعدون ، بن تمام الأزدي الأندلسي ، وكان إماماً في القراءة والنحو، وغيره من العلوم ، زاهداً، عابداً ، انتفع به الناس في كثير من البلاد، ولا سيما أهل الموصل ، فانه أقام بها، وفيها توفي ، رحمه الله .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ذكر وفاة خوارزمشاه ايل أرسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تُكش وقتل المؤيد وملك ابنه

في هذه السنة، توفي خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين ، قد عاد من قتال الخطا مريضا، فتوفي ، وملك بعده سلطانشاه محمود، ودبرت والدته المملكة والعسكر، وكان ابنه اسبر علاء الدين تكش مقيماً في الجند، قد أقطعه أبوه اياه ، فلما بلغه موت أبيه ، وتولية أخيه ، الصغير، أنف من ذلك ، وقصد ملك الخطا، واستمله على أخيه ، وأطمعه في الأموال ، وذخائر خوارزم ، فسير معه جيشاً كثيفاً، مقدمهم قرماً، فساروا، حتى قاربوا خوارزم ، فخرج سلطانشاه وأمه إلى المؤيد، وأهدى له هدية جليلة المقدار، ووعده أموال خوارزم وذخائرها ، فاغتر بقوله ، وجمع جيوشه ، وسار معه ، حتى بلغ سوبرلي بليدة، على عشرين فرسخا من خوارزم ، وكان تكش قد عسكر بالقرب منها، فتقدم إِليهم ، فلما تراءى الجمعان ، انهزم عسكر المؤيد، وكسر المؤيد، وأخذ أسيرا ، وجيء به إلى خوارزمشاه ، تكش ، فأمر بقتله ، ففتل بين يديه صبراً ، وهرب سلطانشاه ، وأخذ إلى دهستان ، فقصده خوارزمشاه ،تكش ، فافتح المدينة عنوة ، فهرب سلطانشاه ، وأُخذت أمه ، فقتلها تكش ، وعاد إلى خوارزم ، ولما عاد المنهزمون إلى نيسابور، ملكوا صفانشاه ، أبا بكر بن المؤيد، واتصل به سلطانشاه ، ثم سار من هناك إلى غياث الدين ملك الغورية ، فأكرمه ، وعظمه ، وأحسن ضيافته ، وأما علاء الدين تكش ، فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم ، اتصلت به رسل الخطا، بالاقتراحات والتحكم كعادتهم ، فأخذته حمية الملك والدين ، وقتل أحد أقارب الملك ، وكان قد ورد إليه ، وسه جماعة ، أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال ، فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم ، اتصلت به رسل الخطا ، بالاقتراحات والتحكم كعادتهم ، فأخذته حمية الملك والدين ، وقتل أحد أقارب الملك ، وكان قد ورد إليه ،

ومعه جماعة ، أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال ، فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم ، فقتل كل واحد منهم رجلاً من الخطا، فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده ، وبلغ ذلك سلطانشاه ، فسار إلى ملك الخطا، واغتنم الفرصة بهذه الحال ، واستنجده على أخيه علاء الدين تكش ، وزعم له أنّ أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ، ولو رأوه لسلموا البلد إليه ، فسير معه جيشاً كثيراً من الخطا ، مع قرماً أيضاً، فوصلوا إلى خوارزم ، فحصروها، فأمر خوارزمشاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليها ، فكادوا يغرقون ، فرحلوا ، ولم يبلغوا منها غرضاً ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ، ولاموا سلطانشاه ، وعنفوه ، فقال لقرما: لو أرسلت معي جيشاً إلى مرو، فاستخلصتها من يد دينار الغزي ، وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز إلى الآن ، فسيّر معه جيشاً، فنزل على سرخس ، على غرة من أهلها، وهجم على الغز، فقتل مقتلة عظيمة، فلم يتركوا بها أحداً منهم ، وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة، فأُخرج منه ، ودخل القلعة، وتحصن بها، وسار سلطانشاه إلى مرو، فملكها وعاد الخطا إلى ما وراء النهر، وجعل سلطانشاه دأبه قتال الغز، والقتل فيهم ، والنهب منهم ، فلما عجز دينار عن مقاومته ، أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد ، يقول له : ليرسل إليه من يسلم إليه قلعة سرخس ، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش ، فسلم إليه دينار القلعة، ولحق بطغان شاه ، فقصد سلطان شاه سرخس ، وحصر قلعتها .

وبلغ ذلك طغان شاه ، فجمع جيوشه ،وقصد سرخس، فلما التقى هو وسلطان شاه قرطغان شاه إلى نيسابور، وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة، فأخلى قراقوش قلعة سرخس ، ولحق بصاحبه ، وملكها سلطان شاه ، ثم أخذ طوس ، والزام ، وضيق الأمر على طغان شاه بعلو همته ، وقلة قراره ، وحرصه على طلب الملك ، وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر، فلم يزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه ، سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، في المحرم ، وملك ابنه سنجر شاه ، فغلب عليه مملوك جده المؤيد، اسمه منكلي تكين ، فتفرق الأمراء أنفة من تحكمه ، واتصل أكثرهم بسلطان شاه ، وسار الملك دينار إلى كرمان ومعه الغز،

فملكها، وأما منكلي تكين ، فإنه أساء السيرة في الرعية ، وأخذ أموالهم ، وقتل بعض الأمراء ، فسمع خوارزمشاه ، بذلك ، فسار إِليه ، فحصره بنيسابور قي ربيع الأول ، سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فحصرها شهرين ،

فلم يظفر بها، وعاد إلى خوارزم ، ثم رجع سنة ثلاث وثمانين إلى نيسابور، فحصرها، وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم فسلموا البلد إليه ، فقتل منكلي تكين ، وأخذ سنجر شاه ، وأكرمه وأنزله بخوارزم ، وأحسن إليه ، فأرسل إلى نيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم ، فسمع به خوارزمشاه ، فاخذ سنجر شاه ، فسمله ، وكان قد تزوج بأمه ، وزوجه بابنته فماتت ، فزوجه بأخته ، وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب ، مسارب التجارب .

وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ ، هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الأمور

مع تقديم وتأخير ونحن نوردها : فقال : إنّ تكش خوارزمشاه بن أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم ، وكان قد ملكها بعد موت أبيه ، فجاء إلى مرو فملكها، وأزاح الغز عنها ، فخرجوا أياماً ، ثم عادوا عليه ، فأخرجوه منها ، وانتهبوا خزانته ، وقتلوا أكثر رجاله ، فعبر إلى الخطا ، فاستنجدهم ، وضمن لهم مالا ، وجاء بجيش عظيم ، فاخرج الغز عن مرْو وسرخس ونسا وأبيورد، وملكها ، ورد الخطا . فلما أبعدوا ، كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وبادغيس وما والاها ويتوعده إن هو لم ينزل عن ذلك ، فأجابه غياث الدين ، يطلب منه إقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان ، فلما سمع الرسالة ، سار عن مرْو، وشن الغارات على بادغيس وبيوار وما والاها ، وحصر بوشنج ، ونهب الرساتيق ، وصادر الرعايا ، فلما سمع غياث الدين ذلك ، لم يرضَ لنفسه أن يسيرهو، بل سترملك سجستان ، وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام ، صاحب باميان ، باللحاق به ، لأن أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء ، فجاء بهاء الدين ، ابن أخت غياث الدين ، وملك سجستان ومن معهما من العساكر، ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة، فلما علم بوصولهم ، عاد إلى مرْو من غير أنْ يقاتلها، وأحرق كل ما مر به من البلاد، ونهب ، وأقام بمرو إلى الربيع ، وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى ، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال ، فنادى في عساكره الرحيل لساعته .

وعاد إلى خراسان ، واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر، وقصدوا سلطان شاه ، فلما علم ذلك ، جمع عساكره ، واجتمع عليه من الغز والمفسدين وقطاع الطريق ، ومر عنده طمع خلق كثير، فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان ، ونزل سلطان شاه بمرْو الررذ، وتقدم عسكر الغورية إليه ، وتواعدوا

للمصاف ، ويقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث المدين ، وبين سلطان شاه. ، وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذن في الحرب فلا يتركه وتقرر الأمر على أن يسلم غياث الدين إلى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار، وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين ، صاحب باميان ، إلا أنهما لم يخالفان غياث الدين ، وفي آخر الأمر، حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين ، وحضر الأمراء ليكتب العهد، فقال الرسول : ان سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر، فأرسل غياث الدين إليهما، فأعادا الجواب : إننا مماليك ، ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك ، فبينما الناس مجتمعون في تحرير الأمر، وإذا قد أقبل مجد الدين العلوي الهروي إليه ، وكان خصيصاً بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار، فلا يخالف ، فجاء العلوي ويده في يد ألب غازي ، ابن أخت غياث الدين ، وقد كتبوا الكتاب ، وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ، ملك الباميان ، فجاء العلوي كأنه يسارر غياث الدين ، ووقف في وسط الحلقة، وقال للرسول : يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الأعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ، ويقول لك العلوي خصمك أنا ومولانا ألب غازي ، بيننا ربينك السيف ، ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه ،وحثى التراب على رأسه ، وأقبل على غياث الدين ، وقال له : هذا واحد طرده أخوه ، وأخرجه فريد اً وحيداً ، لم نترك له ما ملكناه بأسيافنا من الغزو الأتراك والسنجرية، فإذا سمع هذا عنا يجيء أخوه يطلب منازعته والهند وجميع ما بيدك، فحرك غياث الدين رأسه ، ولم يفه بكلمة ، فقال ملك سجستان للعلوي : أترك الأمر ينصلح ، فلما لم يتكلم غياث الدين يمنع العلوي ، قال شهاب الدين لجاووشيته : نادوا قي العسكر بالتجهز للحرب ، والتقدم إلى مرْو الروذ وقام وأنشد العلوي بيتاً من الشعر عجمياً، معناه :إن الموت تحت السيوف ، أسهل من الرضا بالدنية ، فرجع الرسول إلى سلطان شاه ، وأعلمه الحال ، فرتب عساكره للمصاف ، والتقى الفريقان ، واقتتلوا، فصبروا للحرب ، فانهزم سلطان شاه وعسكره ، وأخذ أكثر أصحابه أسارى ، فأطلقهم غياث الدين .

ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارساً، ولحق به من أصحابه ، نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لأخيه ، سار من خوارزم في ألفي فارس ، وأرسل إِلى جيحون ثلاثة آلاف فارس ، يقطعون الطريق على أخيه : ان أراد الخطا، وجد في السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى، فأتت الأخبار سلطان شاه

بذلك ، فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخطا، فسار إلى غياث الدين ، وكتب إليه يعلمه قصده إليه ، فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده بإكرامه واحترامه ، وحمل الإقامات إليه ، ففعل به ذلك ، وقدم على غياث الدين ، والتقاه ، وأكرمه ، وأنزله معه في داره ، وأنزل أصحاب سلطان شاه ، كل إنسان منهم عند من هو في طبقته : فانزل الوزير عند وزيره ، والعارض عند عارضه ، وكذلك غيره ، وأقام عنده خ ى انسلخ الشتاء ، فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه إلى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده ، وجمع العساكر عليه ، ويشير بالقبض عليه ، ورده إليه ، فانزل الرسول ، وإذ قد أتى كتاب نائبه بهراة، يخبره : أن كتاب خوارزمشاه جاءه يتهدده ، فأجابه أنه لا يظهر لخوارزمشاه أنه أعلمه بالحال ، وأحضر الرسول ، وقال له يقول لعلاء الدين : أما قولك إن السلطان شاه أخرب البلاد، وأراد ملكها، فلعمري أنه ملك وابن ملك ، وله همة عالية ، وإذا أراد الملك ، فمثله أراده ، وللأمور مدبر يوصلها إلى مستحقها ، وقد التجأ إلف ، وينبني أنْ تنزاح عن بلاده ، وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ، ومن الأملاك التي خلف ، والأموال ، وأحلف لكما يميناً على المودة والمصافاة، وتخطب لي بخوارزم ، وتزوج أخي شهاب الدين بأختك ، فلما سمع خوارزمشاه الرسالة، امتعض لذلك ، وكتب إلى غياث الدين كتاباً يتهدده بقصد بلاده ، فجهز غياث الدين العساكر، مع ابن أخت ألب غازي ، وصاحب سجستان ، وسيرهما مع سلطان شاه إلى خوارزم ، وكتب إلى المؤيد، صاحب نيسابور، يستنجده ، وكان قد صار بينهم مصاهرة، زوج المؤيد ابنه طعان شاه بابنة غياث الدين ، فجمع المؤيد عساكره ، وأقام بظاهر نيسابور، على طريق خوارزم .

وكان خوارزمشاه قد سارعن خوارزم إلى لقاء عسكر الغورية الذين مع أخيه سلطان شاه ، وقد نزلوا بطرف الرمل ، فبينما هو في مسيره ، أتاه خبر المؤيد أنه قد جمع عساكره ، وأنه على قصد خوارزم ، إذا فارقها ، فوقع في قلبه ، وعاد إلى خوارزم ، فاخذ أمواله وذخائره ، وعبر جيحون إلى الخطا، وأخلى خوارزم ، فوقع بها خبط عظيم ، فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي ، وسألوه إرسال أمير معهم يضبط البلد، فخاف أن تكون مكيدة، فلم يفعل ، فبينما هم على ذلك توفي سلطان شاه ، سلخ رمضان ،

سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فكتب ألب غازي إلى غياث الدين يعلمه الخبر، فكتب إليه يأمره بالعود إليه ، فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه ، فأمر غياث الدين

بأن يستخدموا ، وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيدة ، وكلهم قابل إحسانه بكفران ، وسنذكر باقي أخبارهم ، ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة أخيه ، عاد إلى خوارزم ، وأرسل إلى سرخس ومرْو شحناء ، فجهز إليهم أمير هراة، عمر المرغني ، جيشاً ، فأخرجوهم ، وقال : حتى نستأذن السلطان غياث الدين ، وأرسل خوارزمشاه رسولًا إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة، وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ، ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود، وهو الذي جعل غياث الدين شافعياً ، وكان له عنده منزلة كبيرة ، فوعظوه ، وخوفوه الله تعالى ، وأعلموه أنّ خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بأنه يجيء بالأتراك والخطا ، ويستبيح حريمهم وأموالهم ، وقالوا له : إما أنْ تحضر أنت بنفسك ، وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن أهلها، وإما أن تصالح خوارزمشاه ، فاجاب إلى الصلح ، وترك معارضة البلاد، فلما سمع من بخراسان ، من الغز، بذلك ، طمعوا في البلاد، فعاودوا النهب والإحراق والتخريب ، فسمع خوارزمشاه ، فجمع عساكره ، وحضر بخراسان ، ودخل مرو وسرخس ونسا وأَبيَورد، وغيرها، وأصلح البلاد، وتطرق إلى طوس ، وهي للمؤيد صاحب نيسابور، فجمع المؤيد جيوشه ، وسار إليه ، فلما سمع خوارزمشاه بمسيره إليه ، عاد إلى خوارزم ، فلما وصل إلى الرمل ، أقام بطرفه ، فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه ، وتبعه ، فلما سمع خوارزمشاه ، بذلك ، أرسل إلى المناهل التي في البرية، فالقى فيها الجيف والتراب ، بحيث لا يمكن الانتفاع بها ، فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء، فلم يجده ، فجاء خوارزمشاه إليه وهو على تلك الحال ، ومعه الماء على الجمال ، فأحاط به ، فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم ، وجيء بالمؤيد أسيراً إلى خوارزمشاه ، فأمر بضرب عنقه ، فقال له : يا مخنث ، هذا فعال الناس ، فلم يلتفت إليه ، وقتله ، وحمل رأسه إلى خوارزم . فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه ، طغان شاه ، فلما كان من قابل ، جمع خوارزمشاه عساكره ، وسار إلى نيسابور، فحاصرها، وقاتلها ، فتبعه طغان شاه ، وأخذه وزوجه أخته ، وحمله معه إلى خوارزم ، وملك نيسابور وما كان لطغان شاه ، وقوي أمره .

هذا الذي ذكره في هذه الرواية مخالف لما تقدم ، ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت ، فان أحدهما قد قدم ما أخره الأخر، فلهذا أوردنا جميع ما قالاه ، ولبعد البلاد

عنا، لم نعلم أي القولين أصح لنذكره ونترك الأخر، وإنما أوردتها في موضع واحد، لأن أيام سلطان شاه لم تطل له ولأعقابه ، حتى تتفرق على السنين ، فلهذا أوردتها متتابعة .

ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج

في هذه السنة في ربيع الأول ، اجتمعت الفرنج ، وساروا إلى بلد حوران ، من أعمال دمشق ، للغارة عليه ، وبلغ الخبر إلى نور الدين ، وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة، فسار إليهم مجداً ، وقدم بجموعه عليهم ، فلما علموا بقربه منهم ، دخلوا إلى السواد ، وهو من أعمال دمشق أيضا ، ولحقهم المسلمون ، فتحفظوا من ساقتهم ، ونالوا منهم ، وسار نور الدين ، فنزل في عشترا، وسير منها سرية إلى أعمال طبرية، فشنوا الغارات عليها ، فنهبوا ، وسبوا وأحرقوا ، وخربوا ، فسمع الفرنج ذلك ، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم ، فلماوصلوا، كان قدفرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم ، وعادوا ، وعبروا النهر، وأدركهم الفرنج ، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم ، فقاتلوهم ، فاشتد القتال ، وصبر الفريقان : الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردوها ، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها، فلما طال القتال بينهم ، وأبعدت الغنيمة ، وسلمت مع المسلمين ، عاد الفرنج ، ولم لِقدروا أن يستردوا منها شيئاً.

ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة

في هذه السنة، في جمادى الأولى ، سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، أخو صلاح الدين الأكبر، من مصر إلى بلد النوبة، فوصل إلى أول بلادهم ليتغلب عليه ، ويملكه ، وكان سبب ذلك : أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر، فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة ، أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور الدين ، لقوه وصدوه عن البلاد، فإن قووا على منعه ، أقاموا بمصر، وإنْ عجزوا عن منعه ، ركبوا البحر، ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها، فجهز شمس الدولة ، وسار إلى أسوان ، ومنها إلى بلد النوبة ، فنازل قلعة اسمها ابزيم ،

فحصرها، وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة، لأنهم
ليس لهم

جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب ، فسلموها، فملكها، وأقام بها، ولم ير للبلاد دخلاً يرغب فيه وتحتمل المشقة لأجله ، وقوتهم الذرة، فلما رأى عدم الحاصل ، وقشف العيش مع مباشرة الحروب ، ومعاناة التعب والمشقة، تركها وعاد إلى مصر بما غنم ، وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري.

ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم

في هذه السنة، في جمادى الأولى ، هزم مليح بن ليون الأرمني ، صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب ، عسكر الروم من القسطنطينية ، وسبب ذلك : أن نور الدين كان قد استخدم مليحاً المذكور، وأقطعه إقطاعاً سنياً ، وكان مُلازماً الخدمة لنور الدين ، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج ، ومباشراً لها، وكان هذا من جيد الرأي وصائبه ، فإنّ نور الدين ، لما قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الأقطاع في بلاد الشام ، قال : أستعين به على قتال أهل ملته ، وأريح طائفة من عسكري نكون بإزائه ، لنمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له ، وكان مليح أيضاً يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم ، وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية ، فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده ، فسير إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه ، فلقيهم مليح ، ومعه طائفة من عسكر نور الدين ، فقاتلهم ، وصدقهم القتال ، وصابرهم ، فانهزمت الروم ،وكثر فيهم ا لقتل والأسر، وقويت شوكة مليح ، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد، وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ، ومن الأسرى ثلاثين رجلًا من مشهوريهم وأعيانهم ، فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة، المستضيء بأمر الله ، وكتب يعتد بهذا الفتح ، لأن بعض جنده فعلوه .

ذكر وفاة ايلدكز

في هذه السنة، توفي أتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان ، ولم يختلف عليه أحد، وكان ايلدكز هذا مملوكاً للكمال السميرمي ، وزير السلطان محمود، فلما قتل الكمال – كما ذكرناه – سارا ايلدكز إلى السلطان محمود، فلما وُلي السلطان مسعود السلطنة، ولاه

أرانية، فمضى إليها، ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ، ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والري

وما والاهما من البلاد، وخطب السلطنة لاين امرأته ، ارسلان شاه بن طغرل ، وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع ، واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ، ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم ، إنما كأن له جراية تصل إليه ، وبلغ من تحكمه عليه أنه شرب ليلة، فوهب ما في خزانته ، وكان كثيراً، فلما سع ايلدكز بذلك ، استعاده جميعاً، وقال له : متى أخرجت المال في غير وجهة، أخذته أيضاً من غير وجهة، وظلمت الرعية، وكان ايلدكز عاقلًا، حسن السيرة، يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم ، وينصف بعضهم من بعض.

ذكر وصول الترك إلى إفريقية وملكهم طرابلس وغيرها

في هذه السنة، سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش ، مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب ، إلى جباله نفوسة، واجتمع به مسعود بن زمام ، المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء هناك ، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن ، فاتفقا ، وكثر جمعهما، ونزلا على طرابلس الغرب ، فحاصراها ، وضيقا على أهلها، ثم فتحت ، فاستولى عليها قراقوش ، وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفضة وتونس وما والاها من القرى والمواضع ، وصار مع قراقوش عسكر كثير، فحكم على تلك البلاد، بمساعدة العرب ، بما جبلت عليه من التخريب ، والنهب ، وآلافساد بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك ، فجمع بها أموالًا عظيمة وجعلها بمدينة قابس ، وقويت نفسه ، وحدثته بالاستيلاء على جميع إفريقية لبعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها، وكان ما سنذكره إن شاء الله .

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

في هذه السنة ، جمع أبو يعقوب يوصف ين عبد المؤمن عساكره ، وسار من إشبيلية إلى الغزو، فقصد بلاد الفرنج ، ونزل على مدينة رتلي ، وهي بالقرب من طليطلة شرقاً منها، وحصرها، واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ، ملك طليطلة في جمع كثير، فلم يقدموا على لقاء المسلمين ، فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين، وعدمت الأقوات عندهم ، وهم في جمع كثير، فاضطروا إلى مفارقه بلاد الفرنج ، فعادوا إلى أشبيلية وأقام

يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو على ذلك يجهز العساكر

ويسيرها إلى غزو بلاد الفرنج في كل وقت ، فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف ، وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج ، فلا يبرز إِليه أحد ، ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش .

ذكر نهب نهاوند

في هذه السنة ، نهب عسكر شملة نهاوند، وسبب ذلك أنّ شملة كان أيام ايلدكز لا

يزال يطلب منه نهاوند ، لكونها مجاورة بلاده ، ويبذل فيها الأموال ، فلا يجيبه إلى ذلك ، فلما مات أيلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان ، وسار إلى أذربيجان لإصلاحها ، نفذ شملة ابن أخيه ابن شنكا، لأخذ نهاوند، وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا، وحصرهم وقاتلهم وقاتلوه ، وأفحشوا في سبه ، فلما علم أنه لا طاقة له بهم ، رجع إلى تستر، وير قريبة منها، وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة، فتأخرت عنهم ، فلما اطمأنوا، خرج ابن شنكا من تستر في خمسمائة فارس ، وسار يوماً وليلة فقطع أربعين فرسخاً حتى وصل إلى نهاوند، وضرب البوق ، وأظهر أنه من أصحاب البهلوان ، لأنه جاءهم من ناحيته ، ففتح أهل البلد له الأبواب ، فدخله ، فلما توسط ، قبض على القاضي والرؤساء، وصلبوهم ، ونهب البلد، وقطع أنف الوالي ، وأطلقه ، وتوجه نحو ماسيزان قاصداً للعراق .

ذكر قصد نور الدين بلاد قلج أرسلان

في هذه السنة ، سار نور الدين محمود بن زنكي إلى مملكة عز الدين قلج أرسلان

ابن مسعود بن قلج أرسلان ، وهي ملطية وسيواس ، واقصرا وغيرها ، ملازماً على حربه ، وأخذ بلاده منه ، وكان سبب ذلك : أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس ،قصده قلج أرسلان ، وأخذ بلاده ، وأخرجه عنها طريداً فريداً ، فصار إلى نور الدين مستجيرا به وملتجئاً إليه ، فاكرم نزله ، وأحسن إليه ، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعده النصرة والسعي في رد ملكه إليه ، ثم إنّه أرسل إلى قلج أرسلان يتشفع في إعادة ملكه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين إليه ، فابتدأ بكبسون

وبهنسي ومرعش ومرزبان ، فملكها وما بينها، وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي بعدها، فلما ملكها سير طائفة من عسكره إلى سيواس ، فملكوها، وكان قلج أرسلان

لما سار نور الدين إلى بلاده ، قد سار من طرقها التي تلي الشام إلى وسطها ، وراسل نور الدين يستعطفه ، ويسأله الصلح ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فاتاه عن الفرنج ما أزعجه ، فأجابه إلى الصلح ، وشرط عليه أنْ ينجده بعساكر إلى الغزاة وقال له : أنت مجاور الروم ولا تغزوهم ، وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ، ولا بد من الغزاة معي ، فأجابه إلى ذلك ، وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين ، وير لذي النون ، فبقي العسكر في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين ، فلما مات ، رحل عسكره عنها ، وعاد قلج أرسلان وملكها،وهي بيد أولاده إلى الآن، سنة نيف وعشرين وستمائة، ولما كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري من بغداد، ومعه منشور من الخليفة بالموصل ، والجزيرة وبإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر .

ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك ، وعوده عنها

في هذه السنة، في شوال ، رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك ، والاجتماع مع نور الدين عليه ، والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين ، كل واحد منهما في جهة بعسكره ، وسبب ذلك : أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي ، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه ، أرسل يعتذر، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين ، فاستقرت القاعدة بينهما أنّ صلاح الدين يخرج من مصر، ويسير نور الدين من دمشق ، فايهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما 1 فيه ، فسار صلاح الدين عن مصر لأن طريقه أبعد وأشق ، ووصل إلى الكرك ، وحصره ، وأما نور الدين ، فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر، فرق الأموال ، وحصل الأزواد وما يحتاج إليه ، وسار إلى الكرك ، فوصل إلى الرقيم ، وبينه وبين الكرك مرحلتان ، فلما سمع صلاح الدين بقربه ، خافه هو وجميع أهله ، واتفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا، كان عزله على نور الدين سهلاً، فلما عاد، أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن

رحيله ، بأنه قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرضى ، ويخاف أن يحدث حادث الموت ، فتخرج البلاد غن أيديهم ، وأرسل معه من

التحف والهدايا ما يجل عن الوصف ، فجاء الرسول إلى نور الدين ، وأعلمه ذلك ، فعظم عليه ، وعلم المراد من العود، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً، بل قال له : حفظ مصر أهم عندنا من غيرها، وسار صلاح الدين إلى مصر، فوجد أباه قد قض نحبه ، ولحق بربه ، وكلمة تقول لقائلها دعني ، وكان سبب موت نجم الدين أنه ركب يوماً فرساً بمصر، فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة، فسقط عنه ، فحمل إلى قصره وقيذا، وبقي أياماً ، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة ، وكان خيراً ، عاقلًا ، حسن السيرة ، كريماً جواداً ، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم ، وقد تقدم من ذكره وابتداء أمره وأمر أخيه شيركوه ، ما لا حاجة إلى إعادته .

ذكر عدة حوادث

فيِ هذه السنة ، زادت دجلة زيادةً كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق في شعبان ، وسدوا أبواب الدروب ، ووصل الماء إلى قبة أحمد بن حنبل ، ووصل إلى النظامية ورباط شيخ الشيوخ ، واشتغل الناس بالعمل في القورج ثم القورج ، ثم نقص وكفى الناس شره .

وفيها وقعت النار ببغداد، من درب بهروز إلى باب جامع القصر، ومن الجانب الأخر، من حجر النحاس إلى دار أم الخليفة .

وفيها ، أغار بنو حزن من خفاجة ، على سواد العراق ، وسبب ذلك ، أن الحماية كانت لهم لسواد العراق ، فلما تمكن يزدن من البلاد، وتسلم الحلة، أخذها منهم ، وجعلها لبني كعب من خفاجة، وأغار بنو حزن على السواد، فسار يزدن في عسكر، ومعه الغضبان الخفاجي ، وهو من بني كعب ، لقتال بني حزن ، فبينما هم سائرون ليلاً، رمى بعض الجند، الغضبان بسهم فقتله لفساده ، وكان في السواد، فلما قُتل عاد العسكر إلى بغداد، وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن .

وفيها ، خرج ترجم الإيوائي في جمع من التركمان ، في حياة أيلدكز، وتطرق أعمال همذان ، ونهب الدينور، واستباح الحريم ، وسمع أيلدكز الخبر، وهو بنقجوان ، فسار مجداً ، فيمن خف من عسكره ، فقصده ، فهرب ترجم إلى أن قارب بنداد، وتبعه أيلدكز، فظن الخليفة أنها حيلة ليصل

إلى بغداد فجاة، فشرع في جمع العساكر وعمل السور، فأرسل إلى أيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة ، فاعتذر أنه لم يقصد إلا كف الأمير

يزدن ، وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع ، قوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة، بواسط ، لأن الشيعة جلسوا له للعزاء، وأظهر السنية الشماتة به ، فأل الأمر إلى القتال ، فقُتل بينهم جماعة، ولما مات ، أُقطع أخوه تنامش ما كان لأخيه ، وهي مدينة واسط ، ولقب علاء الدين .

وفيها، أرسل نور الدين محمود بن زنكي ، رسولاً إلى الخليفة، وكان الرسول ، القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ، قاضي بلاده جميعها مع الوقوف والديوان ، وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان ، رما هو عليه من جهاد الكفار، وفتح بلادهم ، وبطلب تقليداً بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل ، وبما في طاعته كديار بكر، وما يجاور ذلك ، كخلاط وبلاد قلج أرسلان ، وأنْ يعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي ، وهو صريفين ودرب هرون ، والتمس أرضاً على شاطىء دجلة يبنيها مدرسة للشافعية، ويوقف عليها صريفين ودرب هرون ، فاكرم كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسول قبله ، وأجيب إِلى ما التمسه ، فمات نور الدين قبل الشروع في بناء المدرسة رحمه الله .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن

قد ذكرنا قبل ، أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب ،صاحب مصر– وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود، أن يدخل إلى مصر، فيأخذها منهم ، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ، ويتملكونها ، تكون عدة لهم ، إنْ أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها ، وأقاموا بها ، فسيروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، وهو أخو صلاح الدين الأكبر، إلى بلد النوبة، فكان ما ذكرناه ، فلما عاد إلى مصر، استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية، فاذن في ذلك ، وكان بمصر شاعرً اسمه عمارة، من أهل اليمن ، فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ، ويصف البلاد له ، ويخم ذلك في عينه ، فزاده قوله رغبة فيها، فشرع يتجهز، ويعد الأزواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الأجناد ، فجمع وحشد ، وسار عن مصر مستهل رجب ، فوصل إلى مكة أعزها الله تعالى ومنها إلى زبيد، وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبي ، فلما قرب منها، رآه أهلها فاستقل من معه ، فقال لهم عبد النبي : كأنكم بهؤلاء وقد حمي عليهم الحر فهلكوا إلا أكلة رام ، فخرج إليها بعسكره ، فقاتلهم شمس الدولة ومن معه ، فلم يثبت أهل زبيد، وانهزموا، ووصل المصريون إلى سور زبيد، فلم يجدوا عليه من يمنعهم ، فنصبوا السلالم ، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوة ، ونهبوه ، وأكثروا النهب ، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرة ، وكانت امرأة صالحة ،كثيرة الصدقة ، لا سيما إذا حجت ، فإنّ فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة ، وخيراً كثيراً ، ومعروفاً عظيماً، فلما أسر شمس الدولة عبد النبي ، وسلم شمس الدولة عبد النبي إلى بعض أمرائه ، يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل ، من بني منقذ أصحاب شيزر، وأمره أنْ يستخرج منه الأموال فأعطاه منها

شيئاً كثيراً. ثم إنه دلهم على قبر، كان قد صنعه لوالده ، وبنى عليه بنية عظيَمةٌ ،وله هناك دفائن كثيرة، فأعلمهم بها، فاستُخرجت الأموال من هناك ، وكانت جليلة المقدار. وأما الحرة فإنها أيضاً، كانت تدلهم على ودائع لها، فاخذ منها مالاً كثيراً، ولما ملكوا زبيد، واستقر الأمر لهم بها، ودانت أهلها، وأقيمت فيها الخطبة العباسية، أصلحوا حالها وساروا إلى عدن ، وهي على البحر، ولها مرسى عظيم ، وهي فرصة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك ، وهي من جهة البر، من أمنع البلاد وأحصنها ، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم –يخرج عنها ، لعادوا خائبين ، وإنما حمله جهله ، وانقضاء مدته ، على الخروج إليهم ، ومباشرة قتالهم ، فسار إليهم ، وقاتلهم ، فانهزم ياسر ومن معه ، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله ، فملكوه ، وأخذوا صاحبها ياسراً أسيراً ، وأرادوا نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال : ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها، فلم ينهب أحد منها شيئاً ، فبقيت على حالها ، وثبت ملكه ، واستقر أمره ،ولمّا مضى إلى عدن ، كان معه عبد النبي صاحب زبيد مأسوراً ،فلما دخل إلى عدن ، قال : سبحان الله ، كنت قد علمت أني أدخل إلى عدن في موكب كبير، فأنا أنتظر ذلك ، وأسر به ، ولم أكن أعلم أنني أدخلها على هذا الحال ، ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن ، عاد إلى زبيد، وحصر ما في الجبل من الحصون ، فملك قلعة تعز، وهي من أحصن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب زبيد ، وملك أيضاً قلعة النعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون ، واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجبيلي ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وجعل في كل قلعة نائباً من أصحابه ، وألقى ملكهم باليمن جرانه ودام ، وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان ، وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن بعد خرابها .

ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

في هذه السنة، ثاني رمضان ، صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعةِ ممن

أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين، وسبب ذلك : أن جماعة من الشيعة ، منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني ، الشاعر، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي العويرس ، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية

القصر، وافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد ، فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ، ثاروا هم في القاهرة ومصر، وأعادوا الدولة العلوية ، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه ، فلا يبقى له مقام مقابل للفرنج ،وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ، ثاروا به ، وأخذوه أخذاً باليد لعدم الناصر له ، وقال لهم عمارة : وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده ، وتجتمع الكلمة عليه بعده .وأرسلوا إلى الفرنج وصقلية والساحل في ذلك ، وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنج .

وكان من لطف الله بالمسلمين أنّ الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي

ابن نجا، الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية، ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة ، إلا أن بني رزيك قالوا : يكون الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا : يكون الوزير منا، فلما علم ابن نجا الحال ، حضر عنده صلاح الدين ، وأعلمه – حقيقة الأمر، فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه ، وتعريفه ما يتجدد أولًا بأول ، ففعل ذلك ، وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ، ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة ، وهو في الظاهر إليه والباطن إلى أولئك الجماعة ، وكان يرسل إليهم بعض النصارى ، وتأتيه رسلهم ، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال ، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى، وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته ، فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة ، منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم ، وصلبهم ، وقيل في كشف أمرهم ، أن عبد الصمد المذكور كان إذا لقي القاضي الفاضل الصلاحي ، يخدمه ويتقرب إليه بجهده وطاقته ،فلقيه يوماً ، فلم يلتفت إِليه ، فقال القاضي الفاضل : ما هذا إلا لسبب ، وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين ، فاحضر علي بن نجا الواعظ ، وأخبره الحال وقال : أريد تكشف لي الأمر، فسعى في كشفه ، فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل إلى الجانب الأخر،

فكشف الحال ، وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه ، فقال : تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه ، فحضر عند صلاح الدين ، وهو في الجامع ، فذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم ، فأقروا ،

فأمر بصلبهم ، وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلبه ، قام القاضي الفاضل ، وخاطب صلاح الدين في إطلاقه ، وطن عمارة أنه يحرض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : يا مولانا لا تسمع منه في حقي ، فغضب الفاضل ، وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيك ، فندم ، ثم أخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فاغلق بابه ولم يجتمع به ، فقال عمارة :

عبدُ الرحيم قد احتجبَ   إن الخلاص هو العجبُ

ثم صلب هووا لجماعة ، ونودي في أجناد ا لمصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد، واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ، وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده ، فلم يعرض لهم ، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم؛ وأما الفرنج ، فإن فرنج صقلية قصدوا الإسكندرية على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى لأنهم لم يتصل بهم طهور الخبر عند صلاح الدين ، وأمّا فرنج الساحل الشامي فانهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال ، وكان عمارة شاعراً مفلقاً، فمن شعره :

لو أنّ قلبي يومَ كاظمة معي   لملكتُهُ وكظمتُ فيضَ الأدمع
قلب كفاكَ من الصبابة أنهُ   لبّى نداءَ الظاعنين وما دعي
ما القلبُ أولُ غادر فألومَهُ   هي شيمةُ الأيامِ مذْ خُلِقتْ معي
ومن الظنون الفاسدات توهُمي   بعدَ اليقينِ بقاءه في أضلعي

وله أيضاً :

لي في هوى الرشا العذري إعذارُ   لم يبقَ لي مذ أقرّ الدمعُ إنكارُ
لي في القدود وفي لثم الخدودِ وفي   ضم النُهودِ لُباناتٌ وأوطارُ
هذا اختياري فوافقْ إنْ رضيتَ بِهِ   أو لا فدعْني وما أهوى واختارُ

وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرقة والملاحة .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه اللّه

في هذه السنة، توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الشام وديار

الجزيرة ومصر، يوم الاربعاء حادي عشر شوال ، بعلة الخوانيق ، ودُفِنَ بقلعة دمشق ، ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين ، ومن عجيب الإتفاق ، أنه ركب ثاني شوال ،وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير: سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا؟ فقال نور الدين لا تقل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا . ؟ فمات نور الدين رحمه الله ، بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحول ، فاخذ كل منهما بما قاله ، وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته ، وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغز والخوف منه ومن الاجتماع به ، فإنه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة ، وكان عزمه أنْ يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي ، صاحب الموصل والشام ، ويسير هو بعساكره إلى مصر، فبينما هو يتجهز لذلك ، أتاه أمر الله الذي لا مردّ له .

حكى لي طبيب ، كان يخدم نور الدين ، وهو من حذاق الأطباء : قال : استدعاني

نور الدين ، في مرضه الذي توفي فيه ، مع غيري من الأطباء، فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه ، وقارب الهلاك ، فلا يكاد يُسمع صوته ، وكان يخلو فيه للتعبد، فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا ورأينا ما به ، قلت له : كان ينبغي أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن ، وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضيء ، فله أثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه وأشرنا بالقصد، فقال : ابن ستين لا يقتصد وامتنع منه ، فعالجناه بغيره ، فلم ينجع فيه الدواء، وعُظم الداء، ومات رحمه الله ورضي عنه ، وكان أسمر، طويل القامة ، ليس له لحية إلا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة، حلو العينين ، وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها ، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله ،

وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلمٍ أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريا منه للعدل ، وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم ، ولنذكر ههنا نبذة ، لعل يقف عليها من له حكم فيقتدي به؛ فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه ،فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا

يتصرف ، إلا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له ، يُحصل له منها في السنة نحو العشرين دينار، فلما استقلتها قال : ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين ، لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك ، وكان يصلي كثيراً بالليل ، وله أوراد حسنة ، وكان كما قيل :

جَمَعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربهِ ما أحسنَ المحراب في المحرابِ

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب ، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وأما عدله ، فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً، بل أطلقها جميعاً في مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول : قد جئت محاكماً، فاسلك ضعي ما تسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له ، فوهبه الخصم الذي أحضره ، وقال : أردت أن أترك له ما يدعيه ، إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت ، ثم وهبته ما يدعيه ، وبنى دار العدل في بلاده ، وكان يجلس هو والقاضي فيها ، ينصف المظلوم ، ولو أنه يهودي ، من الظالم ، ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده ، وأما شجاعته ، فإليها النهاية ، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها، فقال له القطب النساوي ، الفقيه : بالله عليك ، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام ، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ، من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو ،وأما ما فعله من المصالح : فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها، وقلاعها، فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية ، وبنى الجامع النوري بالموصل ، وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق ، وبنى الخانكاهات في جميع البلاد، وأوقف على الجميع الوقوف الكثيرة، سمعت أنّ حاصل وقفه كل

شهر تسعة آلاف دينار صوري ، وكان يكرم العلماء وأهل الدين ، ويعظمهم ، ويقوم إليهم ، ويجلسهم معه ، وينبسط معهم ، ولا يرد لهم قولًا، ويكاتبهم

بخط يده ، وكان وقوراً ، مهيباً مع تواضعه ، وبالجملة فحسناته كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، لا يحتملها هذا الكتاب .

ذكر ملك ولده الملك الصالح

لما توفي نور الدين ، قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده ، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق ، وأقام بها، وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المقدم ، وصار مدبر دولته ، فقال له كمال الدين ، صاحب مصر، هو من أصحاب نور الدين ، والمصلحة أنْ نشاوره في الذي نفعله ، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول أغراضهم ، وخافوا أنْ يدخل صلاح الدين ويخرجهم ، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك ، وأرسل دنانير مصرية عليها، اسمه ، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه ، فلما سار سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، وملك البلاد الجزرية، على ما نذكره . فأرسل صلاح الدين أيضاً إلى الملك الصالح يعتبه ، حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ، وأخذها ليحضر في خدمته ، ويكشف سيف الدين ، وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول : لو أنّ نور الدين يعلم أنّ فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته إِليّ لسلم إليه مصر التي ير أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده ، وتمسك ابن المقدم وجماعة الأمراء بالملك الصالح ، ولم يرسلوه إلى حلب خوفاً أن يغلب عليهم شمس الدين علي بن الداية ، فإنّه كان أكبر الأمراء النورية ، وإنما منعه من الاتصال به ، والقيام بخدمته مرض لحقه ، وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب لتمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ،

ابن عمه قطب الدين ، قلم يمكنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرنا .

ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية

كان نور الدين ، قبل أن يمرض ، قد أرسل إلى البلاد الشرقية – الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعي العسكر منها لحجة الغزاة، والمراد غيرها – وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازي بن قطب الدين مولود بن زنكي ، صاحب الموصل، في عساكره ، وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين ، فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الأخبار بوفاة نور الدين ، فأما سعد الدين فإنه كان في المقدمة فهرب جريدة، وأما سيف الدين فاخذ كل ما كان له من برك وغيره ، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليه وأقطعه ، وسار هو إلى حران ، فحصرها علة أيام ، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحراني ، فامتنع بها، وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين ، فقُبض عليه ، وأخذ حران منه ، وسار إلى الرها فحصرها ، وملكها ، وكان بها خادم خصي أسود لنور الدين ، فسلمها، وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأعطيها، ثم أخذت منه ، ثم صار إلى أنْ يستعطي ما يقوم به وبقوته ، وسير سيف الدين إلى الرقة، فملكها، وكذلك سروج ، واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر، فإنها كانت منيعة،وسوى رأس عين ، فإنها كانت لقطب الدين ، صاحب ماردين ، وهو ابن خال سيف الدين ، فلم يتعرض إليها ، وكان شمس الدين علي بن الداية، وهو أكبر الأمراء النورية بحلب ، مع عساكرها، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به ، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح ، فلم يرسل إليه لما ذكرناه ، ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل إليه من سيواس بعد موت نور الدين ، وهو الذي أقوله الملك بعد أبيه فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الأمراء قال له : الرأي أنْ تعبر إلى الشام فليس به مانع ، فقال له أكبر أمرائه ،وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار : قد ملكت كثر ما كان لأبيك ، والمصلحة أنْ تعود،فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل { ليقضي الله أمراً كان مفعولًا}(1).

و

(1) سورة الأنفال 44 .

ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

لما مات نور الدين محمود، صاحب الشام ، اجتمعت الفرنج ، وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق ، فحصروها، فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم العسكر عنده بدمشق ، فخرج عنها، فراسلهم ولاطفهم ، ثم أغلظ لهم في القول ، وقال لهم : إن أنتم صالحتمونا، وعدتم عن بانياس ، فنحن على ما كنا عليه ، ط لا فنرسل إلى سيف الدين ، صاحب الموصل ، ونعلمه ، ونصالحه ، ونستنجده ، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر، فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ، ولا تقومون لنا، وأنتم تعلفون أنّ صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف ، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع ، فعلموا صدقه ، فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين ، وتقررت الهدنة، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، أنكره واستعظمه ، وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه ، يقبح لهم ما فعلوه ، ويبذل من نفسه ، قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم ، وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح ، وكان قصده أنْ يصير له طريق إِلى بلاد الشام ليتملك البلاد، والأمراء الشاميون إنما صالحوا الفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل ، فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية ، وخافوا منه أنْ يعبر إلى الشام ، فرأوا صلح الفرنج أصلح من أنْ يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم ، وقع الحريق ليلاً ببغداد، فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ، ودام الحريق إِلى بكرة ، وطفئت النار.

وفيها، في شعبان بنى ابن شنكا، وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان ، قلعة بالقرب من الماهكي ، ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال ، فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه ، فالتقوا ، فحمل بنفسه على الميمنة ، فهزمها ، واقتتل الناس قتالاً عظيماً، وأسر ابن أخي شملة، وحمل رأسه إلى بغداد، فعلق بباب النوبيِ، وهدمت القلعة .

وفيها، في رمضان ، وكان الزمان ربيعاً ، توالت الأمطار في ديار بكر والجزيرة والموصل ، فدامت أربعين يوماً ما رأينا الشمس فيها غير مرتين ، كل مرة مقدار لحظة، وخربت المساكن وغيرها ، وكثر الهدم ، ومات تحته كثير من الناس ، وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد ، فانها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع ، وكسر، وخاف الناس الغرق ، وفارقوا البلد، وأقاموا على شاطىء دجلة خوفاً من انفتاح القورج وغيره ، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ، ونبع الماء في البلاليع ، وخرب كثيراً من الدور، ودخل الماء إلى البيمارستان العضدي ، ودخلت السفن من الشبابيك التي له ، فانها كانت قد تقلعت فمنّ الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أنْ أشرفوا على الغرق .

وفيها ، في جمادى الأولى ، كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة ، وسببها أنّ الخليفة أمر بإعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة، فمنع منه قطب الدين ، وأغلق باب النوبي وباب العامة ، وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة ، فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته ، فقال قطب الدين : لا أقنع إلا بإخراج عضد الدين من بغداد، فأمر بالخروج منها، فالتجأ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل ، فأخذه إلى رباطه ، وأجاره ونقله إلى دار الوزير بقطفتا ،فأقام بها، ثم عاد إلى بيته في جمادى الآخرة .

وفيها ، سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة، وهو الذي صار خليفة من قبة عالية إلى أرض التاج ، ومعه غلام له اسمه نجاح ، فالقى نفسه بعده ، وسلم ابن الخليفة ونجا، فقيل لنجاح : لم ألقيت نفسك ؟ فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاي ، فرعى له الأمير أبو العباس ذلك ، فلما صار خليفة جعله شرابياً، وصارت الدولة جميعها بحكمه ، ولقبه الملك الرحيم عز الدين ، وبالغ في الإحسان إليه ، والتقديم له ، وخدمه جميع الأمراء بالعراق والوزراء وغيرهم .

وفيها، في رمضان ، وقع ببغداد برد كبار ما رأى الناس مثله ،فهدم الدور، وقتل جماعة من الناس ، وكثيراً من المواشي ، فوزنت بردة منها ، فكانت سبعة أرطال ، وكان عامته كالنارنج يكسر الأغصان ، هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه ، والعهدة عليه.

وفيها ، كانت وقعة عظيمة بين المؤيد ، صاحب نيسابور، وبين شاه مازندران ، قتل

فيها كثير من الطائفتين ،فانهزم شاه مازندران ، ودخل المؤيد بلد الديلم ، وخربها، وفتك بأهلها وعاد عنها.

وفيها ، وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها أن الماء

لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرا رد الماء عنهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح أهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة ، فقامت الفتنة ، فتقدم الخليفة إلى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لأنه كان شيعياً وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها وأغلقوا ا لأبواب ووقفوا على السور، وأراد إحراق الأبواب ، فبلغ ذلك الخليفة ، فا نكره أشد افكار، وأمر بإعادة تنامش ، فعاد ودامت الفتنة أسبوعاً ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان . وقيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج أرسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون ، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة. وفيها في جمادى الأولى مات أحمد بن علي بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوي الحسيني نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد. رفيها توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من أعيان المحدثين وكان له تبول عظيم ببلد عند العامة والخاصة .

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإِسكندرية وانهزامهم منها

في هذه السنة ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية، وكان سبب ذلك ما ذكرناه من إرسال أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام ،وإلى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر، فجهز صاحب صقلية أسطولاً كثيراً عدته مائتي شيني تحمل الرجالة وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كباراً تحمل آلة الحرب ، وأربعين مركباً تحمل الأزواد، وفيها من الراجل خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلي : وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية، وسيره إِلى الإسكندرية من ديار مصر فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول ، وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم .

وسيّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار، ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجذوا ولازموا الزحفَ حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر .

فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل

جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج ، واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فاحرقوها وصبروا للقتال ، فانزل الله نصره عليهم وطهرت أماراته ولم يزل القتال إلى آخر النهار . ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم .

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكاً له ومعه ثلاثة جنائب لِيَجِدَّ السيرَ عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال ، فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين ، فلما سمع الناس ذلك عاودوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو،يقاتل قتالَ من يريد أن يشاهد قتاله . وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وفتوراً، فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم . وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير، وكفى الله المسلمين شرهم .

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع إليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير، وكان هناك أمير من الصلاحية في أقطاعه وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه ، وهو من أكر الأمراء وأشجعهمُ ،فسار إِلى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيراً من العسكر،ووصلوا إلى مدينة طَود(1)، فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد

(1) طود : بفتح أوله وسكون ثانية بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان .

العزّ وقهروا واستكانوا . ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز وهو في طغيانه يَعْمَه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها .

ذكر ملك صلاح الدين دمشق

في هذه السنة سلخ ربيع الأولى ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق . وسبب ذلك أن نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق ، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب كما ذكرناه ، فأقام بها عند شمس الدين عليّ بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يُغير إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب ، فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكراً فنهبوه وعاد منهزماً إلى حلب ، فاخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه . ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا أن مسيره إِلى حلب أصلح الدولة من مقامه بدمشق ، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح فجهزه وسيّره . –وعلى نفسها براقش تجني – فسار إلى دمشق في المحرم من هذه السنة وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب . فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية لاخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الأحداث بها ، ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك ، واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وقالوا : إن استقر أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا وفعل مثل ما فعل بحلب .

وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلموا إليه دمشق

قلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء طهره فيهلك ، أشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقذر البعيد من الشر قريباً يرى الجبن حزماً كما قال :

يَرى الجبناءُ أن الجبنُ حزمٌ وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق ، وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على مأخذه من البلاد، فلما امتنع عن العبور إلى دمشق

عظم حزمهم وقالوا: حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم – وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم سنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس والفرنج في طريقه فلم يبالِ بهم ، فلما وطىء أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه ، فخرج ولقيه ، فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال : ما أرى معكم عسكراً وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد . قال : كان معكم مال سهل الأمر، فقالوا : هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار، فضرب صاحب بُصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا، وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق ، فخرج كل من بها من العسكر إليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي ، وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان . فاحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري ، وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك ، وأرسله إلى ريحان ليسلم القلعة إليه . وقال : أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه ، وكان يخطب له قي بلاده كلها، فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها، وأخذ ما فيها من الأموال ، وأخرجها، واتسع بها، وثبت قدمه ، وقويت نفسه ، وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه .

ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق ، وقرر أمرها ،استخلف بها أخاه سيف الإِسلام طغدكين بن أيوب وسار إلى مدينة حمص مستهل جمادى الأولى ، يى كانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من

بلد الجزيرة في أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني ، فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، ولم

يكن له في قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها ولاة لنور الدين ، وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها ، فلما نزل صلاح الدين على حمص – حادي عشر الشهر المذكور، راسل من فيها بالتسليم ، فامتنعوا ، فقاتلهم من الغد ، فملك البلد وأمن أهله ، وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب على ما نذكره إِن شاء الله ، وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وأن تصعد إليهم مسيرة .

وسار إلى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لا يظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذ سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية ، فلما وصل إلى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الأمير عز الدين جورديك ، وهو من المماليك النورية ، فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين ، فأرسل إليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي إطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن ، فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه ، فلما عه لم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها .

ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم : قد عرفتم إحسانَ أبي إليكم ومحبتَهُ لكم وسيرتَهُ فيكم وأنا يتيمُكُمْ . وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والذي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق . وقال مِنْ هذا كثيراً وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها، حيث كان الفرنج بالقرب منهم ، فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن فلا يقدر على القرب من البلد، وأرسل سعد الدين إلى سِنان مقدم الإسماعيلية

وبذل له أموالاً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره قلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقَيس فعرفهم لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال

لهم ، فلما رآهم قال لهم : ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قُتِلوا.

وبقي صلاح الدين محاصراً لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب .

وسبب رحيله أن القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين علي حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبقي في الحبس إلى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير، فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنئونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم ، فاتفق أن مَرِي ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأياً ومكراً ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوماً عاجزاً عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القُمص ريمُند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون ، فأرسل إليه من حلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم ،فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم ، ثم رحل إِلى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمه يُمن وهو والٍ عليها من أيام نور الدين فحصها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الأمان له ولمن عنده ، فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة .

ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ، ويطلب أن يعبر إليه ليقصدا صلاح الدين

ويأخذا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يأمره أن ينزل إليه بعساكره

ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع من ذلك ، وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه ، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبرَ أميرٍ معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضاً زلفندار وجعله المدبر للأمر. وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في الصلح فلم يستقر حال .

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه . فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال :لا بد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر. وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب ، فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل ، سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال غيرَ عالمٍ بتدبيرها مع جبنٍ فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين ، فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال : إما أن هذا أشجع الناس أو أنه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحاً عظيماً ودواب فارهة وعادوا بعد طول البيكار

مستريحين وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح ألدين فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصراً

لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله .

ذكر ملك صلاح الدين قلعة بَعْرِين

في هذه السنة في العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام ، وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني وهو من أكابر الأمراء النورية ، فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن أن صلاح . الدين يكرمه ويشاركه في ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم يَرَمن ذلك شيئاً ففارقه ولم يكن بقي له من أقطاعه التي كانت له في الأيام النورية غير بَعرين ونائبه بها، فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين وهي قريبة منها فحصرها، ونصب عليها المنجنيقات ، وأدام قتالها فسلمها، وإليها بالأمان ، فلما ملكها عاد إلى حماة، فاقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وأقطع حمص ، ناصر الدين ابن عمه شيركوه ، وسار منها إلى دمشق ، فدخلها أواخر شوال من السنة .

ذكر مُلكِ البهلوانِ مدينة تبريز

في هذه السنة، ملك البهلوان بن أيلدكز مدينة تبريز، وهي من جملة بلاد آقسنقر

الأحمديلي .

وسببُ ذلك أنّ البهلوان سار إلى مراغة ، وحصرها وكان ابن آقسنقر الأحمديلي

قد مات ، ووصى بالملك لابنه فلك الدين ، فقصده البهلوان ، ونزل على قلعة رويندز، وحصرها ، فامتنعت عليه ، فتركها ، وحصر مراغة ، وسير أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضاً، وكان البهلوان يقاتلُ أهل مراغة، فظفروا بطائفة من عسكره ، فخلع عليهم صدر الدين قاضي مراغة وأطلقهم ، فحسن ذلك عند البهلوان ، وشرع القاضي في الصلح على أن يسلموا تبريزَ إِلى البهلوان ،فأجيب إلى ذلك ، واستقرت

القاعدة عليه ، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه ، وتسلم البهلوان تبريز، وأعطاها أخاهُ قزل أرسلان ، ورحل عن مراغة بعسكره .

ذكر وفاة شملة

في هذه السنة . مات شملة التركماني ، صاحب خوزستان ، وكان قد كثرت ولايته ، وعظم شانه وبنى عدة حصون ، وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة، وكان سببُ موتهِ أنه قصد بعض التركمان ، فعلموا بذلك ، فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن أيلدكز، صاحب عراق العجم ، فسير إليهم جيشاً فاقتَتَلوا ، فأصابَ شملةَ سهمٌ ، ثمَّ أخذ أسيراً ، وولده ، وابن أخيه ، وتوفي بعد يومين ، وهو من التركمان الأقشرية . ولما مات ملك ابنه بعده .

ذكرُ هربِ قطب الدين قايماز من بغداد

في هذه السنة، في شوال ، سير علاء الدين تنامش ، وهو من أكابر الأمراء ببغداد، وكان قطب الدين قايماز، زوج أخته عسكراً إلى العراق ، فنهبوا أهله ، وبالغوا في أذاهم ، فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا ، فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز، وتنامش ، وتحكمها عليه ، فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا فيه ، ومنعوا الخطيب ، وفاتت الصلاة أكثر الناس ، فأنكر الخليفة ما جرى، فلم يلتفت قطب الدين وتنامش إلى ما فعل ، واحتقروه ، فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء ، وازدرائهم أهله ، فلما كان خامس ذي القعدة ، قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار، وكان صاحب المخزن ، وهو خاص الخليفة، وله به عناية تامة، فلم يُراعِ الخليفة في صاحبه ، فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده ، فهرب فاحرق قطب الدين داره ت وحالف الأمراء على المساعدة، والمظاهرة له ، وجمعهم ، وقصد دار الخليفة لعلمه أن ابن العطّار فيها. فلما علم الخليفة ذلك ، ورأى الغلبة، صعد إلى سطح داره ، وطهر للعامة ، وأمر خادماً فصاح ، واستغاث ، وقال للعامة : مالُ قطب الدين لكم ، ودمه لي ، فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب ، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع ، وغلبة العامة، فهرب من داره ، من باب فتحه في طهرها لكثرة الخلق علىِ بابها، وخرج من بنداد، ونهبت داره ، وأخذ منها من الأموال ما لا يعذ ولا يحصى ، فرُئي لهيها من التنعْم ما ليس لأحد مثله ، فمن جملة ذلك ، أن بيت الطهارة الذي كان له ، فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذى وجهه القاعدة على

الخلا، وفي أسفلها كرة كبيرةٌ ، ذهب مخرّمة، محضموة، بالمسك والعنبر، ليشمها إذا قعد فتشبث إنسان وقطعها، ودخل بعض

الصعاليك ، فاخذ عدة أكياس ، مملوءة دنانير، وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس ، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس ، قصد المطبخ ، فاخذ منه قدراً مملوءة طبيخا ، وألقى الأكياس ، فيها ، وحملها على رأسه ، والناس يضحكون منه ،،فيقول أنا أريد شيئاً أطعمه عيالي اليوم ، فنجا بما معه ، فاستغنى بعد ذلك ، فظهر المال ، ولم يبق من نعمة قطب الدين في ساعة واحدة قليل ، ولا كثير، ولمَّا خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء ، فنهبت دورهم أيضاً ، وأخذت أموالهم ، وأحرق أكثرها، وسار قطب الدين إلى الحلة ، ومعه الأمراء فسيّر الخليفة إليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ ، فلم يزل به يخدعه ، حتى سارعن الحلة إلى الموصل على البر، فلحقه ومن معه عطش عظيم ، فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ، ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل ، فحمل ودفن بظاهر باب العمادي ، وقبره مشهور هناك .

وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الإِحسان ، والظلم ، وسوء المّدبير، فإنه ظلم

أهل العراق ، وكفر إحسان الخليفة ، الذي كان قد غمره ، ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان ، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه ، وكان قوياً بالإِحسان على البلاد، فأطاعوه ، ولما مات في ذي الحجة، وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل ، فأقام مديدة، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد، فعاد إليها، وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع ، وكان هذا آخر أمرهم ، ولما أقام قطب الدين بالحلّة امتنع الحاجُ من السفر، فتأخروا إلى أن رحلِ عنها، فدخلوا من الكوفة في ثمانية عشر يوما، وهذا ما لم يسمع بمثله ، وفات كثيراَ منهم الحج ، ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير، وأعيد إلى الوزارة . قال بعض الشعراء في قطب الدين وتنامش هذه الأبيات :

إنْ كنتَ مُعتبراً بملك زائلٍ وحوادثَ عنقيةِ الإدلاجِ

فدعْ العجائبَ والتواريخَ الأولى وانظر إلى قيماز وابن قمَّاجِ

عطفَ الزمانُ عليهما فَسقاهُما من كأسه صرفاً بغير مِزاج

فتبدَلوا بعد القصورِ وظلَها ونعيمها بمهامةٍ وفجاجِ

فليحذر الباقون من أمثالها   نكباتِ دهرٍ خائنٍ مِزْعاجِ

وكان قطب الدين كريماً ، طلق الوجه محبّاً للعدل ، والإحسان ، كثير البذل للمال ،

والذي كان جرى منه ،وإنما كان يحمله عليه تنامش ، ولم يكن بإرادته .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن ، واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر، أبو الفضل ، وحجَّ بالناس عدَة سنين ، وإليه الحكم في الطريق ، وناب عن الوزارة، وتنقَّل في هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة ، وكان يحفظ القرآن .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

في هذه السنة عاشر شوّال ، كان المصاف بين سيف الدين ، غازي بن مودود، وبين صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، بتل السلطان على مرحلة من حلب ، على طريق حماه ، وانهزم سيف الدين ، وسبب ذلك ، أنه لما انهزم أخوه عز الدين مسعود، من صلاح الدين في العام الماضي ، وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين ، صاحب سنجار، عاد إلى الموصل ، وجمع عساكره ،وفرق فيهم الأموال ، واستنجد صاحب حصنِ كيفا، وصاحب ماردين ، وغيرهما، فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس ، فسار إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة، وأقام بها فأطال المقام ، حتى انقض الشتاء ، وهو مقيم ، فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم ، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما يتوقعونه إن ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة، ثم سار إِلى حلب ، فنزل إليه سعدُ الدين كمشتكين الخادم ، مدبر دولة الملك الصالح ، ومعه عساكر حلب ، وكان صلاح الدين في قلة من العساكر لأنه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه السنة، على ما نذكره إن شاء الله .

وقد سيَّر عساكره إلى مصر، فأرسل يستدعيها، فلو عالجوه لبلغوا غرضهم منه ، لكنهم تريثوا، وتأخروا عنه ، فجاءته عساكره ، فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين ، فالتقى العسكران بتل السلطان ، وكان سيف الدين قد سبقه ، فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر، وقد تعب هو وأصحابه ، وعطشوا فالقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم ، وهم على هذا الحال ، فقال زلفندار: ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، غدا

بكرة نأخذهم كلهم ، فترك القتال إلى الغد، فلما أصبحوا اصطفوا للقتال ، فجعل زلفندار، وهو المدبر للعسكر السيفي ، أعلامهم في وهْدةٍ من الأرض ، لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلمّا لم يَرَها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم ، فلم يثبتوا ،إ انهزم ،ولم يلو أحٌ على أخيه ، ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد، ووصل سيف الدين إلى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعوداً في جمع من العسكر، ولم يقم هو، وعبر الفرات ، وسار إلى الموصل ، وهولا يصدق أنه ينجو، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ، ويقصده بالموصل ، فاستشار وزيره جلال الدين ، ومجاهد الدين قايماز، في مفارقة الموصل ، والاعتصام بقلعة عقرا الحميدية، فقال له مجاهد الدين : أرأيت إن مُلِكت الموصل عليك ، أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل . ؟ فقال : لا، فقال : برج في الفصيل خيرٌ من العقر، وما زال الملوك ينهزمون ، ويعاودون الحرب ، واتفق هو، والوزير على شد أزره ، وتقوية قلبه ، فثبت ، ثَم أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز، على ما نذكره إن شاء الله .

وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشاميّ في تاريخ الدولة الصلاحية، أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ، ولم يكن كذلك ، وإنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس ،أقل من خمسمائة ، فإنّي وقفت على جريدة العرض ، وترتيب العسكر المصاف ، ميمنة، وميسرة وقلباً، وجاليشية، وغير ذلك ، وكان المتولى لذلك ، والكاتب له ، أخي مجد الدين ، أبا السعادات ، المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله : إنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه ، بأنه هزم بستة آلاف ، عشرين ألفاً والحق أحقَّ أن يتبع ، ثمَّ ياليت شعري كم هي الموصل ، وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها، وفيها عشرون ألف فارس .

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

لما انهزم سيف الدين ، وعسكره ووصلوا إلى حلب ، عاد سيف الدين إلى الموصل ، كما ذكرناه . وترك بحلب أخاه عز الدين مسعوداً في طائفة من العسكر، نجدة للملك الصالح ، وأما صلاح الدين ، فإنه لمّا استولى على

أثقال العسكر الموصلي ، هو، وعسكره ، وغنموها، واتّسعوا بها، وفروا سار إلى بزاعة فحصرها،

وقاتله من بالقلعة، ثم تسلمها، وجعل فيها من يحفظها، وسار إلى مدينة منبج فحصرها، آخر شوال ، وبها صاحب قطب الدين ، ينال بن حسان المنبجي ، وكان شديد العداوة لصلاح الدين ، والتحريض عليه والاطماع فيه ، والطعن فيه ، فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فاقا المدينة فملكها، ولم تمتنع عليه وبقي القلعة، وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال ،والسلاح ، والذخائر، فحصره صلاح الدين . وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقابون إلى السور فنقبوها، وملكوها عنوة، وغنم العسكر الصلاحي كل ما فيها، وأخذ صاحبها أسيراً، فاخذ صلاح الدين كل ماله ، وأصبح فقيراً لا يملك نقيراً، ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل ، فاقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ، ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة إعزاز، فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فنازلها،وحصرها وأحاط بها، وضيّق على من فيها، ونصب عليها المنجنيقات ، وقُتل عليها كثير من العسكر.

فبينما صلاح الدين يوماً في خيمة لبعض أمرائه ، يقال له جاولي ، وهو مقدم الطائفة الأسدية، إذ وثبت عليه باطني فضر به بسكين في رأسه ، فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله ، فامسك صلاحِ الدين يد الباطني بيده ، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية إنما يضرب ضربا ضعيفاً، فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين ، وكان عليه كزاغند ، فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند ، فتقطعه ، والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته ، لبعد أجله ، فجاء أمير من أمرائه ، اسمه يازكش ، فامسك السكين بكفه ، فجرحه الباطني ، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني ،وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضاً، وثالث فقتل وركب صلاحُ الدين إلى خيمته كالمذعور، لا يصدق بنجاته ، ثم اعتبر جنده ، فمن أنكره ، أبعده ، ومن عرفه ، أقره على خدمته ، ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يوماً، كل يوم أشد قتالاً مما قبله ، وكثرت النقوب فيها، فاذعن من بها، وسلموا القلعة إليه فتسلمها حادي عشر ذي الحجة .

ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها

لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز، رحل إلى حلب ، فنازلها منتصف ذي الحجة، وحصرها، وبها الملك الصالح ، ومن معه من العساكر، وقد قام العامة في حفظ البلد

القيام المرضي ، بحيث إنَّهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد، لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو، وأصحابه ، وكثر الجراحُ فيهم ، والقتل ، وكانوا يخرجون ، ويقاتلونه ظاهر البلد ، فترك القتال ، وأخلد للمطاولة ، وانقضت سنة إحدى وسبعين ، ودخلت سنة اثنتين وسبعين ، وهو محاصر لها، ثم ترددت الرسل بعِنهم في الصلح في العشرين من المحرم ، فوقعت الإجابة إليه من الجانبين لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنَّهم ربما ضجروا ، وضعفوا ، وصلاح الدين ، رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد ، ولا على قتال من به ، فاجاب أيضاً، وتقررت القاعدة في الصلح للجميع للملك الصالح ، ولسيف الدين ، صاحب الموصل ، ولصاحب الحصن ، ولصاحب ماردين ، وتحالفوا ، واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر، فلما انفصل الأمر، رحل عن حلب بعد أن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج صلاح الدين أختاً له ، صغيرة طفلة ، فأكرمها صلاح الدين وحمل لها شيئاً كثيراً وقال لها : ما تريدين قالت : أريد قلعة إعزاز، وكانوا قد علموها ذلك . فسلمها إليهم ورحل إلى بلد الإسماعيلية .

ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

في هذه السنة في ذي الحجة، كان بمكة حرب شديدةٌ بين أمير الحاج طاشتكين ، وبين الأمير مكثر بن عيسى، أمير مكة، وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بجزل مكثر وإقامة أخيه داود مقامه ، وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس فلما سار الحاج عن عرفات ، لم يبيتوا بالمزدلفة ، وإنما اجتازوا بها ، فلم يوموا الجمار، إنما بعضهم رمى بعضها، وهو سائر، ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة، وصاح الناس الغزاة إلى مكة فهجموا عليها . فهرب أمير مكة مكثر، فصعد إلى القلعة التي بناها على جبل أبي قبيس ، فحصروه بها . ففارقها . وسار عن مكة ووُلي أخوه داود الإمارة ونهب كثيراً من الحاج وأخذوا من أموال التجارة المقيمين بها شيئاً كثيراً ، وأحرقوا دوراً كثيرة ، ومن أعجب ما جرى فيها ان إنساناً زراقا ضرب داراً ، بقارورة نفط ، فاحرقها ، وكانت لأيتام فأحرقت ما فيها . ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكاناً آخر، فاتاه

حجر، فأصاب القارورة فكسرها . فاحترق هو بها، فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ، ثم مات .

ذكر مدة حوادث

في هذه السنة في شهر رمضان ، انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض حتى

بقي الوقت كأنه ليلٌ مظلم ، وظهرت الكواكب ، وكان ذلك ضحوة النهار، يوم الجمعة، التاسع والعشرين منه ، وكنتُ حينئذ صبياً بظاهر جزيرة ابن عمر، مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب ، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً وتمسكت به فقوى قلبي ، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي : الآن ترى هذا جميعه انصرف ، فانصرف سريعاً .

وفيها ولى الخليفة المستضيء بأمر الله حجبة الباب ، أبا طالب نصر بن علي الناقد ، وكان يلقب في صغره قنبراً ، فصاروا يصيحون به ذلك إذا ركب فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ، ويمنعون الناس من ذلك ، فامتنعوا، فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب ، فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئاً كثيراً، وعزموا على إرسالها في الموكب ، إذا رأوا ابن الناقد، فانهي ذلك إلى الخليفة ، وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج .

وفيها في ذي الحجة، يوم العيد، وقعت فتنة ببغداد بين العامة، وبين الأتراك ، بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة، ونهب شيء كثير من الأموال ، ففرق الخليفة أموالاً جليلةً فيمن نهب ماله .

وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق إلى ما وراء الري ، وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة، وأكثر ذلك كان بالري وقزوين .

وفيها في ربيع الأخر، استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل ، جلال الدين ،

أبا الحسن بن جمال الله ين محمد بن علي ، وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكي ، .وقد تقدمت أخباره ، وهص المشهور بالجود والإفضال ، ولما ولى جلال الدين الوزارةَ ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة ، وله مكاتبات ، وعهود حسنة مدونة مشهورة، وكان جواداً فاضلاً خيِّراً وكان عمره لما ولى الوزارة خمساً وعشرين سنة .

وفيها في ذي الحجة استناب سيف الدين أيضاً عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض إليه الأمور وكان قبل ذلك إليه الأمر بمدينة إربل ، وأعمالها ، وكان – رحمه الله – من صالحي الأمراء وأرباب المعروف ، بنى كثيراً من الجوامع ، والخانات قي

الطرق ، والقناطر على الأنهار، والربط ، وغير ذلك من أبواب البرِّ، وكان دائم الصدقة ، كثير الإحسان عادل السيرة – رحمه الله .

وفيها قَبَضَ الخليفةُ على سنجر المقتفوي ، أستاذ الدار، ورتب مكانه أبا الفضل ،هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصامت .

وقيها في رمضان ، قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى !مشق ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها حن إلى الوطن ، والأتراب ، ففارق اليمن ، وسار إلى الشامٍ ، وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب في الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصري :

١ وإلى صلاح الدين أشكوا أنَني من بعده مُضني الجَوانِحُ مُولعُ
٢ جزعاً لبُعد الدَّار منه ولم أكن لولا هواه لبُعد دار أجزعُ
٣ فلأركبنَّ إليه متنَ عزائمي ويخبُّ بي ركبُ الغرام ويُوضعُ
٤ ولَأقطَعنَّ مِنَ النَهارِ هواجراً قلب النهار بحرها يتقطَعُ
٥ ولَأسْرَينَّ اللَّيلَ لَا يسرِي به طيفُ الخيالِ ولا البروقُ اللمْعُ
٦ وأقْدمَنَّ إليه قلبي مخبراً أني بجسمي من قريب أتبعُ
٧ حتى أشاهدَ منه أسعدَ طلعةٍ من أفقها صبحُ السَّعادةً يطلعُ

وفي هذه السنة في المحرم برز صلاح الدين من دمشق ، وقد عظم شانه ، بما ملكهُ من بلاد الشام ، وبكسره عسكر الموصل فخافه الفرنج ، وغيرهم ، وعزم على دخول بلدهم ونهبه ، والإغارة عليه ، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه ، فأجابهم إليها ، وصالحهم ، فأمرَ العساكر المصريَّة بالعودة إلى مصر والاستراحة إلى أن يُعاود طلبهم ، وشرط عليهم ، أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فساروا إليها ، وأقاموا بها، إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه .

وفيها مات أبو الحسن علي بن عساكر البطائحي المقري ، وكان قد سمع الحديث الكثير، ورواه ،وكان نحوياً جيداً .

وفي ذي الحجة منها توفي أبو سعد، محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع

الحديث ورواه ، وله شعر جيد ، فمن ذلك ، أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبةً وضمنها شعراً فأجابه .

يا من أَيادِيهِ تُغني من يُعدِّدها   وليس يُحصِي مَداهَا مَن لها يَصِفُ
عَجِزْتُ عن شُكرَ ما أَوْلَيْتَ من كرم   وصِرتُ عبداً ولي في ذلك الشرفُ
أهديت مَنظومَ شِعْرٍ كله دُررٌ   فكل ناظمِ عقدٍ عندَه يقفُ
إذا أتيت ببيتٍ منه كان لنا   قصراً ودر المعاني فوقَه شرفُ
وإن أتيتُ أنا بيتاً يُناقضُه   أتيتُ لكن ببيتٍ سقفُهُ يكف
ما كنتُ منه ولا مِنْ أهلهِ أبداً   وإنَّما حينَ أدنو منه أَقتَطِفُ

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة

ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية

لمَّا رحل صلاح الدين حلب ، على ما ذكرناه ، قبل قصد بلاد الإسماعيلية في المحرم ، ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه ، وإرادةِ قتله ، فنهب بلدهم ، وخرَّبه وأحرقه ، وحصر قلعة مصيات ، وهي أعظمُ حصونهم ، وأحصن قلاعهم ، فنصب عليها المنجنيقات ، وضيّق على من بها ، ولم يزل كذلك ، فأرسل سنان ، مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي ، صاحب حماة ، وهو خال صلاح الدين ، يسأله أن يدخل بينهم ، ويصلح الحال ، ويشفع فيهم ، ويقول له : إنْ لم تفعل قتلناك ، وجميعَ أهل صلاح الدين ، فشفع فيهم ، وسال الصفح عنهم ، فأجابه إلى ذلك ، وصالحهم ، ورحل عنهم ، وكان عسكره قد ملّوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ، ونهب بلد الإسماعيليّة ، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة ، فأذن لهم ، وسار هو إلى مصرَ مع عسكرها، لأنه كان قد طال عهده عنها، ولم يمكنه المضي إليها، فيما تقدم خوفاً على بلاد الشام ، فلما انهزم سيف الدين ، وحصر هو حلب وملك بلادها، واصطلحوا، أمن على البلاد، فسار إلى مصر، وأمر ببناء سور على مصر، والقاهرة، التي على جبل المقطم دوره تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمي ، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين .

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين

كان شمس الدين ، محمد بن عبد الملك بن المقدّم صاحب بعلبكَّ فاتاه خبر أن جمعاً من الفرنج قد قصدوا البقاع ، من أعمال بعلبكَّ ، وأغاروا عليها ، فسار إليهم وكمن لهم في الشعراء، والغياض ، وأوقع بهم ، وقتل فيهم ، وأكثر، وأسر نحو مائتي

رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين وكان شمس الدولة تورانشاه ، أخو صلاح الدين وهر الذي ملك اليمن ، وقد وصل إلى دمشق ، كما ذكرناه ، وهو فيها فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق ، فسار إليهم ، ولقيهم عند عين الجر في تلك المروج ، فلم يثبت لهم ، وانهزم عنهم ، فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم ، منهم سيف الدين وأبو بكر بن السلار، وهو من أعيان الجند الدمشقيين ، واجترأ الفرنج بعدها، وانبسطوا في تلك الولاية، وجروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدم.

ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصي شهاب الدين محمد بن يزان ، صاحب شهرزور، على سيف الدين غازي ، وكان في طاعته ، وتحت حكمه ، وكان سببُ ذلك ، أن مجاهد الدين قايماز، كان متولياً مدينة إربل ، وكان بينه وبين ابن يزان عداوة ، محكمة ، فلقا استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل ، خاف ابن يزان أن يناله منه أذى، فاظهر الامتناع من النزول إلي الخدمة ، فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف الدين كتاباً يأمره بمعاودة الطاعة ، ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسنِ الكتب ، وأبلغها في هذا المعنى ، ولولا خوف التطويل لذكرته ، فيطلب من مكاتباته ،فلما وصل إليه الكتاب ، والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل ، وزال الخُلف .

ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ

بالقرب من جزيرة ابن عمر، حصنٌ منيعٌ من أمنع المعاقل ، اسمه فنك ، وهو على رأس جبل عال ، وهو للأكراد البشنوية ، له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة ، وكان صاحبه هذه السنة أميراً منهم ، اسمه ابراهيم وله اخ اسمه عيسى قد مُ خرج منه ، وهولا يزال يسعى في أخذه من أخيه ابراهيم ، فأطاعه بعض بطانة إبراهيم ، وفتح باب السر ليلًا، وأصعدَ منه إلى رأس القلعة نيفاً وعشرين رجلا، فقبضوا على إبراهيم ، ومن عنده ، ولم يكن عنده إلا نفر من خواصه ،وهذه قلةٌ على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة، ارتفاعاً كثيراً ، وبها يسكن الأمير، وأهله ، وخواصه ، وباقي الجند في القلعة ، تحت القلة ،فلما قبضوا إبراهيم جعلوه في خزانة، وضربه بعضهم

بسيف في يده على عاتقه ، فلم يصنع شيئاً، فلما جعل في الخزانة وش به رجلين ، وصد.الباقون إلى سطح القلعة، ولا

يشتهون أنَ القلعة لهم ، لا مانع عنها، ووصل من الغد بكرة الأميرُ عيسى ليتسلم القلعة ، وبينهما دجلة، وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى، وفيها شبَّاك حديد ثقيل يشرف إلى القلعة، فجذبته بيدها، فانقلع ، وجند زوجها في القلعة لا يقدرون على شيء ، فلما قلعت الشباك ، أرادت أن تدلي حبلًا ترفع به الرجال إليها ، فلم يكن عندها غير ثياب خام ، فوصلت بعضها ببعض، ودلتها إلى القلعة، وشذت طرفيها عندها في عود فأصدت إليها عشرة رجال ، ولم يكن يراهم الذين على السطح ، ورأى الأمير عيسى ، وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون ، فصاح هو، ومن معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا، وكان كلّما صاحوا صاح أهلُ القلعة لتختلف الأصوات ، فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ، وُيمنعون من ذلك ، فلقا اجتمع عندها عشرة رجال ، أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قه خ شراب ، وأمرته أن يقرب منه كأنّه يسقيه الشراب ، ويعرفه الحال ، ففعل ذلك ، وجلس بين يديه ليسقيه ، وعرّفه الحال ، فقال : ازدادوا من الرجال فأصدت عشرين رجلًا وخرجوا من عندها فمدَ إبراهيم يده إلى الرجلين الموكلين به ، فاخذ شعورهما، وأمر الخادم بقتلهما، وكان عنده فقتلهما بسلاحهما، فخرج ، واجتمع بأصحابه ، وأرادوا فتح القلعة، ليصد إِليه أصحابه من القلّة ، فلم يجدِ المفاتيح ، وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا إلى الصعود إلى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى ، فعملوا الحال فجاؤوا ووقفوا على رأس الممرق ، فلم يقدر أحد يفعل ، فاخذ بعض أصحاب إبراهيم ترساً ، وجعله على رأسه ، وحصل في الدرجة ، وصد وقاتل القوم على رأس الممرق ، حتى صعد أصحابه ، فقتلوا الجماعة، وبقي منهم رجل القى نفسه من السطح ، فنزل إلى اسفل الجبل فتقطع .

فلما رأى عيسى ما حل بأصحابه عاد خائباً مما أمله ، واستقر الأمير ابراهيم في قلعته على حاله .

ذكر نهب البندنيجين

في هذه السنة، وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة، وهو ابن ملكشاه ، بن محمود إلى البندنيجين ، فخربها ونهبها، وفتك في الناس ،وسبى حريمهم ، وفعل كل

قبيح ، ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير، عضد الدين ، وعرض العسكر، ووصل العسكر الحلَّة ، وواسط ، مع طاشتكين ، أمير الحاجِّ وغرغلي ، وساروا نحو العدو، فلما سمع بوصولهم ، فارق مكانه ، وعاد، وكان معه من التركمان جمع كثير، فنهبهم عسكر بغداد، ورجعوا من غير أمر بالعود، فأنكر عليهم ذلك ، وأمروا بالعود إلى مواقفهم ، فعادوا لأوائل شهر رمضان ، وقد رجع الملك ، فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الأول ، ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثَم افترقوا فمضى الملك ، وفارق ولاية العراق .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى ، أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه فخر الدولة ، ابن المطلب ، بقصر المأمون ،غربي بغداد، وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي – رضي الله عنه – بمصر، وعمل بالقاهرة بيمارستان ، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة .

وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ، ورأسين ، وركبتين ، وظفرين ، وثماني قوائم ، كأنهما خروفان ببطن واحد، وجه أحدهما إلى وجه الأخر، وهذا من العجائب . وفيها انقضّ كوكبٌ أضاءت له الأرض إضاءة كثيرة، وِسُمع له صوت عظيم ، وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب .

وفيها تُوفّي تاج الدين ، أبو علي ، الحسن بن عبد الله ، المظفر نجن رئيس الرؤساء، أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة.

وفيها في المحرم توفّي القاضي كمال الدين ، أبو الفضل ، محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، قاضي دمشق ، وجميع الشام ، وإليه الوقوف بها ، والديوان وكان جواداً فاضلاً، رئيساً ذا عقل ، ومعرفة ، في تدبير الدول – رحمه الله ورضي عنه – .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكرُ انهزامِ صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة، في جمادى الأولى ، سار صلاح الدين ، يوسف بن أيَّوب من مصر،إِلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج ، وجمع معه عساكر ، وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين منه ، فنهبوا، وأسروا ، وقتلوا ، وأحرقوا ، وتفرَّقوا ، في تلك الأعمال مغيرين ، فلمّا رأوا أنَّ الفرنج لم يظهر لهم عسكر، ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين ، طمعوا وانبسطوا، وساحوا في الأرض آمنين .

وصل صلاح الدين إلى الرملة، عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل إلى نهر، فازدحم الناس للعبور، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم ، بأطلابها، وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر، لأنّ أكثرهم تفرّقوا في طلب الغنيمة، فلمّا رآهم ، وقف لهم فيمن معه ، وتقدَّم بين يديه محمد ابن أخي صلاح الدين ، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه ، فقُتل من أصحابه جماعة، وكذلك من الفرنج ، وكان لتقي الدين ، ولد اسمه أحمد ، وهو من أحسن الشباب ، أوّل ما تكاملت لحيته ، فأمره أبوه بالحملة عليهم ، فحمل عليهم ، وقاتلهم ،وعاد سالماً قد أثر فيهم أثراً كثيراً ، فأمره بالعودة إليهم ثانية ، فحمل عليهم ، فقتل شهيداً ، ومضى حميداً ، –رحمه الله ورضي عنه – وكان أشذ الناس قتالاً ذلك اليوم ، الفقيه عيسى – رحمه الله – وتمّت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين ، فقاربه حتى كاد يصل إليه ، فقتل الفرنجي بين يديه ، وتكاثر الفرنج عليه ، فمضى منهزماً ، يسير قليلا، ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل ، فسلك البريّة إلى أن مضى في نفر يسير إِلى مصر،

ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وقلّ عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً، وعطشاً، وسرعة سير.

وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير، وكان من جملة من أسر، الفقيه عيسى الهكاري ، وهو من أعيان الأسدية ، وكمان جمع العلم ، والدين ، والشجاعة ، وأسر ايضا أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين ، فضلا الطريق فأُخذا ، ومعهما جماعة من أصحابهما، وبقوا سنين في الأسر، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى – بستين الف دينار– وجماعة كثيرة من الأسرى، ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الأخرة، ورأيت كتاباً كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة ، تورانشاه ، وهو بدمشق يذكر الوقعة وفي أوله :

ذكرتُك والخطف يخطرُ بيننا وقد نَهِلتْ منا المثقفة السمر

ويقول فيه : لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر

يريد ، سبحانه :

وما ثَبتتْ إلا وفي نفسِها أَمْرُ

ذكر حصر الفرنج مدينة حماة

في هذه السنة في جمادى الأولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة، وسبب ذلك ، أته وصل من البحر إلى الساحل الشامي ، كندٌ كبير من الفرنج ، من أكبر طواغيتهم ، فرأى صلاح الدين بمصر، وقد عاد منهزماً، فاغتنم خلوَ البلاد، لأنّ شمس الدولة بن أتوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين ، وليس عنده كثير من العسكر، وكان أيضاً كثير الانهماك في اللذات ، مائلا إلى الراحات ، فجمع ذلك الكند الفرنجي من بالشام من الفرنج ، وفرق قيهم الأموال ، وسار إلى مدينة حماة ، فحصرها ، وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي ، خال صلاح الدين ، وهو مريض ، شديد المرض ، وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها فدخلوا اليها وأغاثوا من بها، وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً، وهجموا بعض الأيام على طرف منه ، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً؛ فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية

واشتد القتال ، وعظم الخطبَ ، على الفريقين ، واستقتل المسلمون ، وحاموا عن الأنفس ، والأهل والمال ، فاخرجوا الفرنج

من البلد إلى ظاهرة، ودام القتال ظاهر البلد ليلًا، ونهاراً ، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم ، وأكثروا قيهم القتل ، فرحل الفرنج حينئذ خائبين ، وكفى الله المسلمين شرهمْ فساروا إلى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي ، وكان له ابن من أحسن النّاس شباباً مات قبله بثلاثة أيام .

ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم

في هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين ، على سعد الدين كمشتكين وكان المتولي لأمر دولته ، والحاكم فيها، وسبب قبضه أنه كان بحلب إنسانٌ من أعيان أهلها، يقال له أبو صالح بن العجمي ، وكان مقدماً عند نور الدين محمود، فلما مات نور الدين ، تقدم أيضاً في دولة ولده الملك الصالح ، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن ، لكثرة أتباعه بحلب ، وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضمّ إلى صالح ، وقووا جنانه ، وكثروا سواده ، وكان عنده إقدام وجراءة ، فصار واحد الدولة بحلب ، ومن يصدر الجماعة عن رأيه ، وأمره ، فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنيّة فقتلوه ، ومضى شهيداً، وتمكن بعده سعد الدين ، وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ، ونسبوه إلى العجز، وأنه ليس له حكم ، وأن سعد الدين قد تحكم عليه ، واحتقره ، واستصغره ،وقتل وزيره ، ولم يزالوا به حتى قبض عليه ، وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه اياها الملك الصالح ، فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها، فسير سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر اصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ، ولا يرحمونه ، فمات في العذاب ، وأصر أصحابه على الامتناع ، والعصيان . فلا رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جمادى الأولى –على ما نذكره –ظناً منهم أنهم لا ناصر لهم ، وان الملك الصالح صبيّ ، قليل العسكر، وصلاح الدين بمصرَ، فاغتنموا هذه الفرصة ، ونازلوها ، وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المنجنيقات ، والسلالم ، فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح

مالاً، وقال لهم إن صلاح الدين واصل إلى الشام وربما يسلم القلعة من بها إليه ، فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها، فلما رحلوا عنها ستر إليها الملك

الصالح جيشاً ،فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج ، وصاروا كأنَّهم طلائع ، وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير، فسلموا القلعة إلى الملك الصالح ، فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرَّم ، خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه ، المقيم عند أيلدكز، بهمذان ، وكان أبوه أرسلان قد توفي .

وفيها سابع شوال ، هبَّت ببغداد ريح عظيمة، فزُلزلت الأرض ، واشتد الأمر على الناس ، حتى ظنوا أن القيامة قد قامت ، فبقي ذلك ساعة ثمَّ انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة .

وفيها رابع ذي القعدة، قتل عضد الدين ، أبو الفرج ، محمَّد بن عبد الله بن هبة الله ابن المظفر ابنِ رئيس الرؤساء، أبي القاسم بن المسلمة ، وزير الخليفة ، وكان قد عزم على الحج ، فعَبَرَ دجلة ليسير، وعبر معه أرباب المناصب ،وهو في موكب عظيم ، وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحداً، فلمّا وصل إلى باب قطيبا لقيه كهل فقال : أنا مظلوم وتقدّم ليسمع الوزير كلامه ، فضربه بسكين في خاصرته ، فصاح الوزير قتلني ، ووقع من الدابة،وسقطت عمامته ، فغطّى رأسه بكمّه ، وضرب الباطنيّ بسيف ، وعاد إلى الوزير فضربه ، وأقبل حاجب الباب ، ابن المعوج لينصر الوزير، فضربه الباطني بسكين ، وقيل بل ضربه رفيق كان للباطني ، ثم قتل الباطني ورفيقه ، وكان لهما رفيق ثالث ، فصاح وبيده سكّين فقتل ، ولم يعمل شيئاً، وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير إلى دار له هناك ، وحمل حاجب الباب مجروحا إلى بيته ، فمات هووالوزير، وحمل الوزير، فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور، وكان الوزير قد رأى في المنام ، أنه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه والده أنه اغتسل قبل خروجه ، وقال : هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك ، وكان مولده في جمادى الأولى، سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان أبوه استاذ دار المقتفي لأمر الله ، فلما ماتَ ، ولّى هو مكانه كذلك إلى أن مات المقتفي ، فأقره المستنجد على ذلك ،

ورفع قدره ، فلمّا ولّى المستضيء استوزره ، وكان حافظاً للقران سمع الحديث ، وله معروف ، كثير، وكانت داره مجمعاً

للعلماء ، وختمت أعماله بالشهادة، وهو على قصد الحج .

وفيها كانت فتنة ببغداد، وسببها أنه حضر قوم من مسلمي المدائن إِلى بغداد،فشكوا من يهودها، وقالوا لنا : مسجد نؤذن فيه ونصلّي وهو مجاور الكنيسة، فقال لنا اليهود : قد آذيتمونا بكثرة الأذان ، فقال المؤذن ما نبالي بذلك ، فاختصموا ، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود، فجاء المسلمون يشكون منهم ، فأمر ابن العطّار، وهو صاحب المخزن ، بحبسهم ، ثمّ أخرجوا فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة، فخفَّف الخطيب الخطبة ، والصلاة، فعادوا يستغيثون فاتاهم جماعة من الجند،ومنعوهم ، فلما رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرة للإسلام ، فاستغاثوا، وقالوا أشياء قبيحة، وقلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجندَ فهربوا ثم قصد العامة دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهود، فنهبوها واراد حاجب الباب منعهم ، فرجموه فهرب منهم ، وانقلب البلد، وخربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري ، وأحرقوا التوراة، وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجداً، وتصب ا بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين ، فظنها العامّة نصبت تخويفاً لهم ، لأجل ما فعلوا، فعلقوا عليها في الليل جرذاناً ميتة، وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها.

وفيها في شعبان ، قبض سيف الدين ، غازي ، صاحب الموصل ، على وزيره ،جلال الدين ، علي بن جمال الدين ، لغيرجرم ، ولا عجز،، ولا لتقصير، بل لعجز سيف الدين ، فإنَّ جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة ، فقال مجاهد الدين لسيف الدين :لا بد من قبض الوزير، فقبض عليه كارهاً لذلك ، ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لصهورة بينهما، فاخرج وسار إلى آمد فمرض بها، وعاد إلى دنيسر، فمات سنة خمس وسبعين ، وعمره سبع وعشرين سنة، وحمل إلى مدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدفن عند والده في الرباط الذي بناه بها ، وكان رحمه الله ، من محاسن الدنيا جمع كرماً، وعلماً،وديناً، وعفةً، وحسنَ سيرة، واستحلفه سيف الدين ، أنه لا يمضي إلى صلاح الدين ،لأنه خاف أن يمضي إليه للمودة التي كانت بين جمال الدين ، وبين نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه ، فبلغني أنَّ صلاح الدين طلبِه فلم يقصده لليمين .

وفيها اجتمع الفرنج ، طائفة منهم ، وقصدوا اعمال حمص ، فنهبوها ، وغنموا وأسروا وسبوا ، فسار ناصر الدين ، محمد بن شيركوه ، صاحب حمص ، وسبقهم ، ووقف على

طريقهم ، وكمن لهم ، فلمّا وصلوا إليه ، خرج إليه هو والكمين ،ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم ، وأسر جماعة من مقدميهم ، ومن سلم منهم ، لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح ، واستردَّ منهم جميع ما غنموا ، فرده على أصحابه .

وفيها في ربيع الأخر، توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ الزاغوني ببغداد.

وفيها في جمادى الأولى ، توفي محمد بن احمد بن عبد الجبار، الفقيه ، الحنفي ، المعروف بالمشطب ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضاً

في هذه السنة في ربيع الأول سار، جمع كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة، وكثر جمعهم من الفرسان ، والرجالة طمعاً في النهب ، والغارة ، فشنّوا الغارة ، ونهبوا ، وخربوا القرى ، وأحرقوا ، وأسروا ، وقتلوا ، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ، ساروا إليهم ، وهم قليل ، متوكلين على الله تعالى، فالتقوا، واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال ، فنصرهم الله تعالى ، وانهزم الفرنج ، وكثر القتل ، والأسر فيهم ، واستردوا ما غنموه من السواد، وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام ، في شوال من السنة المتقدمة ،وهو نازل بظاهر حمص ، فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه ، فأمر بقتل الأسرى ، فقتلوا.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه

في هذه السنة عصى شمس الدين ، محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبكّ ، وكانت له قد سلمها إِليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له ، حيث سلم إليه ابن المقدم دمشق ، – على ما سبق ذكره – فلم تزل بيده إلى الآن ، فطلب شمس الدولة، محمد بن أيوب ، أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه في طلبها لأنّ تربيته ومنشأه كان بها، وكان يحبّها ويختارها على غيرها من البلاد، وكان الأكبر قلم يمكن صلاح الدين مخالفته ، فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها، فلم يجب إلى ذلك وذكرَّه العهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه ، فلم يصغ إليه وألح في أخذها ، وسار ابن المقدَّم إليها واعتصم بها ، فوجَّه إليه صلاح الدين عسكراً وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها، وترك عليه عسكراً يحصره ، قلما طال عليه

الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلبُ العوض عنها ليسلمها إليه ، فعوضه عنها وسلّمها فاقطعها صلاح الدين أخاه شمسَ الدولة .

ذكر الغلاء والوباء العام

في هذه السنة انقطعت الأمطار بالكلية في سائر البلاد الشامية، والجزيرة، والعراقية والديار البكرية والموصل ، وبلاد الجبل ، وخلاط ، وغير ذلك ، واشتد الغلاء، وكان عامّاً في سائر البلاد، ، فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق ، وهي أربعة عشر مكوكا بالموصلي بعشرين ديناراً صورية عتق ، وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكي بدينار أميري ، وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك ، واستسقى الناس في أقطار الأرض فلم يسقوا ، وتعذرت الأقوات ، وأكلت الناس الميتة ، وما ناسبها ، ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين ، ثَم تبعه بعد ذلك وباءٌ ، شديد عام أيضا كثر فيه الموت ، وكان مرض الناس شيئاً واحداً وهو السرسام ، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى . إلا أنّ بعض البلاد كان أشذ من البعض ، ثمّ إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب ، وأرسل الأمطار، وأرخص الأسعار .

ومن عجيب ما رأيت أنني قصدت رجلًا –من العلماء الصالحين – الجزيرة لأسمع عليه شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان ، سنة خمس وسبعين ، والناس في أشذ ما كانوا غلاء وقنوطاً من الأمطار، وقد توسط الربيع ولم تجيءْ قطرةٌ واحدةٌ من المطر، فبينما أنا جالس ومعي جماعة تنتظر الشيخ ، وإذ قد أقبل إِنسان تركماني قد أثر عليه الجوع ، وكأنَّه قد أخرج من قبر، فبكى وشكى الجوع ، فأرسلت من يشتري له خبزاً، فتغيمت السماءُ وجاءت نقط من المطر متفرقة، فضجَّ الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز، فأكل التركماني بعضه ، وأخذ الباقي ، ومشى ، واشتد المطر، ودام المطر من تلك الليلة.

ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين

في هذه السنة في ذي القعدة اجتمع الفرنج ، وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم ، فأغاروا على أعمالها ، فنهبوها ، وأسروا ، وقتلوا ، وسبوا ، فأرسل صلاح الدين

فرخشاه – ولد أخيه – في جمع من العسكر إليهم ، وأمر أنّه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه ، وتقدَم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج ، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم ، فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه ، فاضطر إلى القتال ، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه . فانهزم الفرنج ، ونُصر المسلمون عليهم ، وقتل من مقدميهم جماعة، ومنهم هنفري ، وما أدراك ما هنفري ، كان يُضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين ، فأراح الله من شره ، وقتل غيره من أضرابه ، ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس .

وفيها ايضا أغار البرنس صاحب انطاكية واللاذقية على حشير المسلمين بشيزر وأخذه ، وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان ، فأجحف بأموالهم ، وكان صلاح الدين على بانياس – على ما نذكره –إن شاء الله فسيّر ولد أخيه تقيَّ الدين عمر إلى حماة، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إِلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو، دمرهم الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر، نحو ثلث الليل الأخير، وغاب منكسفاً.

وفيها ايضا في التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة .

وفي هذه السنة في شعبان توفي الحيص بيص الشاعر، واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس ، وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء ، والسلاطين ، والأكابر، وشعره مشهور فمنه قوله :

كلما أوسعتُ حلمي جاهلًا ... أوسعَ الفحشَ له فحشُ المقالِ

وإذا شاردةٌ فُهتُ بها ... سَبَقتْ مرَّ النَّعامى والشمالِ

لا تلمْنِي في شَقَائِي بالعُلا ... رَغَدُ العيشِ لربَّاتِ الحجالِ

1

سيفُ عِزٌّ زَانَهُ رونَقُهُ   فهو بالطَّبْعِ غَنيٌّ عن صقالِ

وفي المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الإبري ، وسمعت الحديث من السراج وطرَاد، وغيرهما وعمرت هي قاربت مائة سنة، وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو إسنادها.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

كان الفرنج قد بنوا حصناً منيعاً يقارب بانياس عند بيت يعقوب – عليه السلام – بمكان يعرف بمخاضة الأحزان ، فلقا سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس ، وأقام بها، وبث الغارات على بلاد الفرنج ، ثم سار إلى الحصن ، وحصره ليخبره ثم يعود إِليه عند اجتماع العساكر، فلما نازلَ الحصن قاتل من به من الفرنج ، ثم عاد عنه ، فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس ، بل أقام بها وخيلُه تُغِيرُ على بلاد العدو، وأرسل جماعة من عسكره ،مع جالي الميرة، قلم تشعر إلآ والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر، فسار في العساكر مجداً حتى وافاهم وهم في القتال ، فقاتل الفرنج قتالًا شديداً ، وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وهزم المشركين ، وقتلت منهم مقتلة كثيرة، ونجا ملكهم فريداً، وأسر منهم كثير، منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ، ونابلس ، وهو أعظم الفرنج محلًا بعد الملك ، وأسروا أيضا أخاه صاحب جبيل ، وصاحب طبرية ، ومقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم ، وطواغيتهم .

فأما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ، وحكى عنه ، قال : ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما :

ㄱㅂ فإن تكنِ الدولاتُ قسماً فإنها لمن يَرِدُ الموتَ الزؤامَ تؤول

ㄴㅂ ومن هون الدنيا على النفسِ ساعةً وللبيض في هامِ الكماة صليل

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي إليه ، وكان ذلك سبب الظفر، ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة، وتجهَّز للدخول إلى ذلك الحصن ، ومحاصرته ، فسار

اليه في ربيع الأول وأحاط به، وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه ، وبثَّ العساكر

في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك ، وجمعوا من الأخشاب والزرحون شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمنجنيقات ،فقال له جاولي الأسدي – وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمر– الرأي أننا نجرّبهم بالزحف أول مرة، ونذوق قتال من به ، وننظر الحال معهم ،فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت ، فقبل رأيه ،وأمر فنودي بالزحف إليه والجد في قتاله ، فزحفوا واشتدّ القتال ، وعظم الأمر، فصعد إِنسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه ، وتبعه غيره من أضرابه ، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم ، وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد، وكان الفرنج قد جمعوا بطبريّة، فالح المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم ،وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل ، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا، فلما كان الغدّ أصبحوا نقبوا الحصن وعمَّقوا النقب ، وأشعلوا النيران فيه ، وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه ، فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفاً ، فانتظروه يومين فلم يسقط فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب ، فحمل الماء وألقى عليها فطفئت ، وعاد النقابون فنقبوا ، وخرقوا السور، وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ، ودخل المسلمون الحصن عنوة، وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين ، وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج ، وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره ، وألحقه بالأرض ،وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتل فلم يفعلوا ، ظنًا منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام ، وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن ، فلمّا أتاهم الخبر بأخذه فت في أعضادهم

، فتفرّقوا إلى بلادهم ، وأكثر الشعراء فيه ، فمن ذلك قول صديقنا النشو بن نفاذة رحمه الله :

هلاكُ الفرنج أَتى عاجلاً   وقد آن تكسيرُ صُلبانِها
ولَوْ لَمْ يكنْ قدْ دنا حتفُهَا   لما عمرت بيتَ أحزانِها

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي :

أتسكن أوطانَ النبيينَ عصبةٌ تمينُ لدى أيمانِها وهي تحلفُ

نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج أرسلان

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين ،يوسف بن أيوب ، ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ، صاحب بلاد قونية، واقصرا ، وسببها أن نورَ الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد أخذ قديماً من قلج ارسلان حصن رعبان ، وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن ،فطمع قيه قلج أرسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين ، فأرسل إليه من يحضره ، فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألف ، فأرسل إليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس ، فواقعهم ، وقاتلهم ، وهزمهم ، وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان ، فكان يفتخر ويقول : هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا .

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين

أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد – رضي الله عنه ،وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال ، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه ، وكان النّاس معه في أمني عام ، لاحسان شامل ، وطمأنينة وسكون ، لم يروا مثله ، وتهان حليماً قليل المعاقبة على الذَّنوب ، محباً للعفو والصفح عن المذنبين ، فعاش حميداً ومات سعيداً رضي الله عنه فلقد كانت أيامه كما قيل :

كان أيامَهُ من حُسْن سِيرتِه مواسمُ الحج والأعيادِ والجَمعِ

ووزراؤه عضد الدين ، أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل –في ذي القعدة

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين ، أبو بكر منصور

ابن نصر المعروف ، بابن العطّار، وكان خبيراً حسن السيرة كثير العطاء، وتمكن تمكنا كثيراً ، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أمير المؤمنين فلمَّا تمَت البيعة صار الحاكم في الدولة ، أستاذا الدار مجد الدين ، أبا الفضل بن الصاحب .

وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ، ووش عليه في داره ثم نقل إلى التاج وقيد، ووكّل به ، وطلب ودائعه وأمواله ، وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتاً على رأس حمَّال سرّاً ، فغمز به بعض الناس ، فصار به العامة ، فالقوه عن رأس الحمَّال ، وكشفوا سوأته ، وشدّوا في ذكره حبلًا وسحبوه في البلد، وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعني أنّها قلم ، وقد غمسوها في العذرة، ويقولون وقع لنا يا مولانا إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة، ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم وأعراضهم ، وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة فستر صر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان ، صاحب همذان ، وأصفهان ، والري ، وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين ، وأغلظ له في القول حتى إنه قال لعسكره في حضرته ، ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين –بل يجب عليكم أن تخلعوه من الامارة، وتقاتلوه ، فاضطر إلى البيعة والخطبة وأرسل رضي الدين القزويني مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة، فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها، وعمت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مض من الليل ربعه ، وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الإنسان يبصر صاحبه ، وكنت حينئذ بالموصل ، فصلينا العصر، والمغرب ، والعشاء الآخرة على الظن والتخمين ، وأقبل الناس على التضرع ، والتوبة والاستغفار، وظنوا أن القيامة قد قامت ، فلمّا مض مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام ، والعتمة التي غطت السماء، فنظرنا فرأينا النجوم ، فعلمنا مقدار ما مض من الليل لأن الظلام لم يزد بدخول الليل ، وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك .

وفيها في ذي القعدة، نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبك ، وطلب

عوضا عنها الإسكندرية، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وأقطع بعلبكَّ لعز الدين فرخشاه ابن أخيه ، فسار إليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل إلى قلعة صفد وهي مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم ،وخرج وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة ، وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالاسكندرية وإذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له إليها حاجة، فإنه أقام بها إلى أن مات بها .

وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ ، وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع . وقيها توفي أحمد بن عبدُ الرحمن الصوفي ، شيخ رباط الزوزني ، وسمع الحديث ، وكان يصوم الدهر. وعبدُ الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه ، وهو من بيت الحديث ، والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي سمع الحديث ورواه ، وولّى قضاء الحريم ، وعلي بن أحمد اليزيدي سمع الحديث الكثير، وله وقف كتب كثيرة ببغداد، وكان زاهداً خيّراً صالحاً، ومحمدُ بن علي بن حمزة بن الاقساسي نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيراً :

ربّ قوم في خلائقهم غرر قد صيروا غررا

ستر المال القبيح لهم سترى إن زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم ، المعروف بابن سديد الدولة الأنباري ، كاتب الإنشاء بعد أبيه ، وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه ، كان مناظراً حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبي حنيفة .